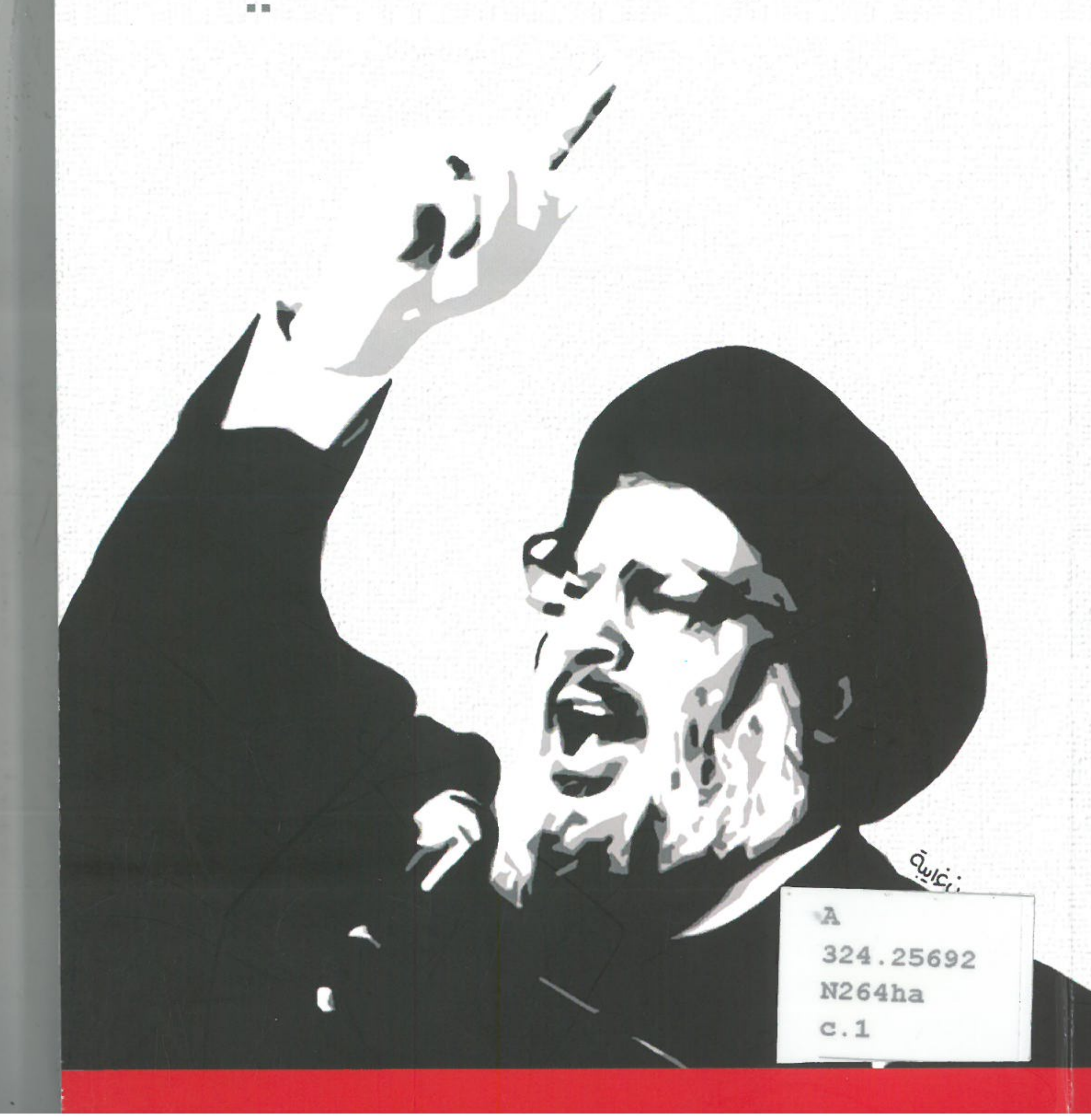
ناهض حتّر

حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني



ناهض حتّر

حسن نصرالله

وقضايا التحرّر الوطني





الكتاب: **حسن نصرالله وقضايا التحرّر الوطني**

المؤلف: **ناهض حتّر**

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) 2016م

شبكة **ميسلون** للدراسات والإعلام

بيروت ـ لبنان

قراءة بين السطور

عصام التل(*)

حين قرأت نصوص الرفيق ناهض حتَّر(**) التي تتناول مسيرة «حزب الله» وفكر سيد المقاومة، حسن نصر الله؛ فوجئت بمدى الجرأة الفكرية والسياسية في تناول ظاهرة تكاد تكون غير مسبوقة: فالدين، في منهج التحليل المادي الجدلي ظاهرة في جوهرها غيبية، وفي سياقها السياسي رجعية بالضرورة، إلا استثناءً، وهذا الاستثناء مربك. ولذلك، ظل التحليل العياني لظاهرة «لاهوت التحرير» في أميركا اللاتينية مثار جدل في جذوره الطبقية والإيديولوجية، وكذلك في مآلاته، في سياق الثورة الوطنية والاجتماعية، سواء في مواجهة الهيمنة الإمبريالية الأميركية المستندة إلى تاريخ طويل من الإبادة الجماعية، أم في مواجهة الطبقات

(*) عصام التل كاتب وقيادي يساري أردني مخضرم.

(**) معظم النصوص في هذا الكتيّب، سبق نشره في صحيفة «الأخبار» اللبنانية، وفق التواريخ المثبتة في أماكنها.

الاجتماعية ـ السياسية الكمبرادورية المهيمنة في معظم دول أميركا اللاتينية المرتبطة بها وقت انبثاق الظاهرة في أواسط القرن الفائت.

لماذا ناهضت الثورة الإسلامية في إيران الإمبريالية والصهيونية ابتداءً.. منذ قيامها؟ هل لأنها ثورة شعب حقيقية كان لليسار دور مهم في إنجازها، رغم أن الثورة الإسلامية أجهزت عليه على مذبح الإيديولوجيا عندما تمكنت؟ أم لأن حركة التشيع بحكم نشوئها تاريخياً تحمل في رحمها بذور الانحياز للكادحين، الذين اختارت السلطة الدينية الإيرانية تسميتهم «بالمستضعفين»؟ ولذا كان لا بد من أن تصطدم بالهيمنة الإمبريالية، التي أعادت الشاه في أوائل الخمسينيات إلى العرش، بعد أن طردته ثورة الشعب الإيراني، وأجهزت على الثورة الوليدة، التي كان مصدق بطلها؟

الحديث عن الثورة الإسلامية في إيران يقود إلى الحديث عن «حزب الله».. فلولاها لظلت الجماعة الشيعية في لبنان حاملاً اجتماعياً ممكناً للتغيير الاجتماعي ـ السياسي، ولكن ضمن مفهوم «المظلومية»، لأنها كانت أكثر الطوائف كدحاً في البنية الاجتماعية اللبنانية، وأكثرها خضوعاً لآليات الإقطاع السياسي. ولذا فإن ولادة «حزب الله» هي حصيلة مشروعة للثورة الإسلامية في إيران، ومعاناة الكادح الشيعي، واشتعال المسألة الوطنية مع الاحتلال «الإسرائيلي» للبنان في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

فهل يستطيع «حزب الله» أن يكون لا شيعياً؟

هذا ما يتطلّع إليه اليوم القوميون والتقدميون العرب، الذين

تمكنت الإمبريالية والرجعية العربية، عقب انتصار حليفهما الصهيوني في حزيران 1967، من تصفية حركتهم الناشئة المناهضة للإمبريالية، ومن فرض حقبة ظلامية زاوجت بين البترودولار الخليجي والمخططات الإمبريالية وأجهزتها الاستخبارية، لاستنبات ظاهرة دينية رجعية بامتياز تمثلت فيما نعرفه اليوم «بالإسلام السياسي»، الذي يحمل بصمات الوهابية بكل ما تعنيه من تصحُّر وعداء للمدنية ونزوع إلى سفك الدماء.

اجتياز «حزب الله» حدود الصراع مع «إسرائيل» عقب تحرير لبنان، وتجاوزه السياق الوطني اللبناني، ليندغم في حرب مناهضة، ليس فحسب للعدوان الإمبريالي ـ الصهيوني ـ الرجعي على سوريا المستقلة التي ترفض الدوران في الفلك الإمبريالي والتصالح مع «إسرائيل»، وتالياً المتناقضة مع «الخيار الصحراوي» العربي، وضعه في مواجهة معطى جديد: التناقض المباشر ليس فحسب مع الإمبريالية، راعية العدوان على سوريا ومهندسته، وإنما أيضاً مع «الإسلام السياسي» الوهابي الرجعي حتى النخاع. ولم يتأخر السيد كثيراً في اكتشاف حقيقة المعادلة، فأعلنها بجرأة.. رغم أن الحليف والأب الروحي الإيراني لم يكن راغباً في أن تصل الأمور إلى هنا: الانحياز إلى «العَلمانية» السورية في مواجهة «الوهابية» السعودية. فهو يرى في الإيديولوجيا الناظم للعلاقات، ليس الإقليمية فسحب، وإنما على صعيد العالم بمجمله، وهذه هي في الأصل رسالة الإمام الخميني، رغم أن التاريخ لا يصغي كثيراً للإيديولوجيا.

اكتشف سيد المقاومة هذه المعادلة بعقل علمي مادي ديالكتيكي لا لَبْس فيه.. وأخذ يسترجع التاريخ بأدوات الراهن.. فالحسين لم يكن مناهضاً لسلطة بني أمية التي صادرت التجربة الإسلامية المنحازة إلى الكادحين فحسب، وهذا لم يكن سوى خيار الممكن التاريخي، فما كان للإسلام أن ينجز مهام الثورة التي لم تتوفر شروطها الموضوعية في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي.. وإنما كان مثالاً للثائر التاريخي على الظلم الاجتماعي ـ السياسي، فغدا اليوم، أي الحسين، «جيفارا» الشيعي، بالفهم الاجتماعي ـ السياسي، عند السيد، دون أن يقول ذلك تصريحاً ولكنه يعرفه.

ثمة تناقض آخر، ليس مستعصياً على الحل، ولكنه يتطلب قدرة هائلة على تجاوز الذات، وهذا يليق بالسيد: ويتجسّد في متطلب تجاوز مناهضة الصهيونية والإمبريالية، إلى تجاوز الرجعية، وقد فعل «حزب الله» ذلك في سوريا سياسياً.. فهل يتجاوزها أيديولوجياً.. وهذا يعني أن تصبح رجعية لبنان (السياسية التابعة للرجعية الخليجية وللإمبريالية) مثلها مثل الرجعية التي يقاتلها الحزب في سوريا. ويصبح الاجتماعي ـ السياسي اللبناني هو هو نفسه الاجتماعي ـ السياسي في كل مكان.

الأمر ليس بالسهولة التي يمكن للرغبة أن تفترضها، «فحزب الله» حزب شيعي.. ولحمة الكادحين الشيعة من حوله، وإن حمل راية كدحهم، أيديولوجية في المقام الأول.. ويحتاج الأمر إلى

تثقيف صعب، وإن كان السيد قد تجرأ عليه ويتوق إلى أن يتجرأ أكثر حتى يصبح «ثائر» كل المواسم، وكل المناهضين للرجعية، في كل مكان.

السيد هو، بالتأكيد، ثائر الثوار في هذه الحقبة، وزعيم حركة التحرر الوطني العربية بامتياز.. ويدرك العصر بعبقرية عزَّ نظيرها.. وفي المقابل، ثمة ممكن تاريخي لا يجترحه سوى الأبطال.. حتى التراجيديين منهم.. والهوان الذي نحن فيه يجعلنا أحياناً نحلم.. ولكن من قال إن التاريخ لا يكتبه الحالمون.. في كثير من الأحيان!

ما أثارته نصوص الرفيق ناهض حتّر من إشكالات نظرية وفكرية، ليس بالهيّن، ولا تعوزه الجرأة.. وهكذا تُورَد الإبلُ، عندما لا يكون الهوى هو النهج، بل الحقيقة، التي لا يعلو شأنها شأنٌ، لمن يأخذون على عاتقهم مقاربة الحياة من دون مخاتلة.

مداخل وملامح

(1)

بين حركات المقاومة وحركات التحرر الوطني، فارقٌ نوعي؛ فالتحرر الوطني يشتمل على مفهوم المقاومة ضد المحتلين، ولكنه يتجاوزه إلى مفاهيم مكافحة الاستعمار والاستقلال الوطني والدولة الوطنية والتنمية ومناوأة الكمبرادورية وتحقيق الديموقراطية الاجتماعية والنزعة الإنسانية التقدمية المعادية للرجعية والتعصب ونبذ الآخر والحريات وحقوق الإنسان. وليس بالضرورة أن تشتمل حركات المقاومة على كل هذه المفاهيم، مكتفية بالقتال ضد المحتلين؛ ولدينا، في بلادنا، مثالان حديثان: المقاومة العراقية التي قارعت الاحتلال الأميركي حتى طردته عسكرياً، ولكنها لم تتبنّ الاستقلالية ولا التنمية وغرقت في الرجعية والفساد، وحتى العجز عن إعادة بناء الدولة.

المثال الآخر: حركة حماس التي قاتلت الاحتلال الإسرائيلي، ولكنها افتقرت إلى أبسط مفاهيم وسياسات التحرر الوطني.

في أميركا اللاتينية بيئة ثقافية شبيهة بالبيئة العربية، من حيث الحضور الجماهيري القوي للدين. ولطالما جرى استخدام

(1)

بين حركات المقاومة وحركات التحرر الوطني، فارقٌ نوعي؛ فالتحرر الوطني يشتمل على مفهوم المقاومة ضد المحتلين، ولكنه يتجاوزه إلى مفاهيم مكافحة الاستعمار والاستقلال الوطني والدولة الوطنية والتنمية ومناوأة الكمبرادورية وتحقيق الديموقراطية الاجتماعية والنزعة الإنسانية التقدمية المعادية للرجعية والتعصب ونبذ الآخر والحريات وحقوق الإنسان. وليس بالضرورة أن تشتمل حركات المقاومة على كل هذه المفاهيم، مكتفية بالقتال ضد المحتلين؛ ولدينا، في بلادنا، مثالان حديثان: المقاومة العراقية التي قارعت الاحتلال الأميركي حتى طردته عسكرياً، ولكنها لم تتبنّ الاستقلالية ولا التنمية وغرقت في الرجعية والفساد، وحتى العجز عن إعادة بناء الدولة.

المثال الآخر: حركة حماس التي قاتلت الاحتلال الإسرائيلي، ولكنها افتقرت إلى أبسط مفاهيم وسياسات التحرر الوطني.

في أميركا اللاتينية بيئة ثقافية شبيهة بالبيئة العربية، من حيث الحضور الجماهيري القوي للدين. ولطالما جرى استخدام

الكنيسة، في القارة المظلومة، ضد شعوبها، حتى اجترح آباءٌ مناضلون، ما عُرف بـ «لاهوت التحرير». وهو، بإيجاز، إعادة تفسير للمسيحية بقيم التحرر القومي ـ الاجتماعي.

في بلادنا، لم تحدث مثل تلك التجربة؛ بالعكس، كانت الحركات الإسلامية، دائماً، رجعية؛ حركة الإخوان المسلمين ولدت في أحضان الاحتلال البريطاني لمصر، وبعطف القصر الملكي. وهي عادت السياسات التحررية والإجراءات التقدمية الناصرية. كذلك فعلت إزاء ثورة البعث الفلاحية في سوريا. ومن لدن الإخوان المسلمين، خرج الفكر التكفيري الإرهابي على يد سيّد قطب، الأب الروحي لكل الحركات الإرهابية اللاحقة. ولعب الإخوان المسلمون، كما هو معروف، دوراً أساسياً في إنشاء القاعدة في أفغانستان. وإلى ذلك، اتسم الاسلام السياسي العربي بثلاث سمات، أولاها؛ التطابق مع الاقتصاد الليبرالي الكمبرادوري التابع للرأسمالية العالمية، وثانيتها، العداء العميق للقومية، سواء العربية أو السوراقية المشرقية، وثالثتها العداء للشيوعية، ما جعل الاسلام السياسي أداة للامبريالية طوال الحرب الباردة.

حزب الله حالة فريدة في الاسلام السياسي العربي؛ فقد ولد الحزب في أتون مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، ومرتبطاً بثورة قومية شعبية جبارة هي الثورة الإيرانية، وبمركز التحرر العربي في سوريا.

نشأ الحزب، في البداية، حركة مقاومة لا علاقة لها بأي بُعدٍ قومي تحرري. قارع إسرائيل، ولكنه كان معادياً للشيوعية،

واصطدم مع الحزب الشيوعي اللبناني. وقد انحكمت نظرته للغرب بالنظرة الإخوانية التي ترى الغرب واحداً معادياً للإسلام، ذا طبيعة جوهرية موحدة، لا قوميات ومجتمعات تتصارع عالمياً. ولذلك، وقف الحزب مع الحركة الانفصالية البوسنية الرجعية المدعومة من الولايات المتحدة ضد صربيا القومية المعادية للغرب الإمبريالي وصديقة العرب.

قفز حزب الله فوق هذه المرحلة البدائية، وخصوصاً بسبب تعمق علاقاته مع دمشق، في التسعينيات من القرن الماضي. ركّز على المقاومة، ولكنه دخل مع كتلة رفيق الحريري في حالة زواج مصلحة أو مساكنة، اكتفى فيها الحزب بالمقاومة وبناء مؤسساته الاجتماعية والإدارية والإعلامية، بينما ترك لبنان للنهب النيوليبرالي الكمبرادوري على أيدي الحريرية المتحالفة مع الجناح الأكثر فساداً في النظام السوري. ولربما كان لهذا التساكن، الذي ألغى السياسة والثقافة في لبنان، ما يبرره من ضرورة التركيز على تحرير الأرض. وقد انتهت هذه المرحلة، موضوعياً، في عام 2000، حين اضطر العدو الإسرائيلي إلى الانسحاب من معظم جنوب لبنان.

عندها سعى الحزب إلى تسويغ وجوده وسلاحه، إيجابياً، بتقديم نفسه كقوة دفاعية تحافظ على استقلال وكرامة لبنان. ونجح في البرهنة على دوره الجديد هذا في ما حققه من نصر حاسم على العدوان الإسرائيلي على الأراضي اللبنانية في عام 2006. ونحن نحتفل اليوم بذكرى ذلك الانتصار، لكن مع وعينا الكامل بأن مغزاه

قد انتهى بالمعنى الاستراتيجي. فحزب الله قد حاز على الاعتراف به كقوة ردع لبنانية، وانتهى الأمر.

القفزة الثالثة، في حياة حزب الله، تمثلت بمشاركته في الدفاع عن الجمهورية العربية السورية في مواجهة الحرب الامبريالية ـ الرجعية العربية ـ العثمانية الجديدة. وبالنسبة للحزب، كمقاومة وقوة دفاع، لم يكن ثمة مناص من تلك المشاركة، لأسباب جيوسياسية أمنية؛ فهزيمة سوريا، كانت ستؤدي إلى ضرب حزب الله من الخلف. وما كان الحزب لينتظر الهجوم على معاقله من قبل الإرهابيين، بل كانت الحكمة تقتضي مواجهتهم في سوريا نفسها.

لكن اندغام حزب الله في الحرب السورية، وضعه، تاريخياً، في مرحلة جديدة؛ فهو يقاتل قوات إرهابية ذات صبغة إسلامية، ويدافع عن نظام قومي ـ عَلماني. كما يقف، في هذه الحرب، في خندق متعدد الثقافات والأديان، من إيران إلى روسيا إلى الصين. وبينما واجه حزب الله، جراء تدخله في سوريا، عداء الإسلاميين، فإنه وجد في التقدميين والعلمانيين والقوميين واليساريين، حلفاء أصلاء له؛ كما وجد في المسيحيين، مثلاً، قاعدة اجتماعية لا تقل ولاءً لدوره عن قاعدته الشيعية.

ومن شأن كل ذلك تحطيم المسلّمات، ووضع الحزب على سكة المراجعة الفكرية التي طال انتظارها، وفي المقابل، من شأن تجاهل هذا التحول التأثير على مستقبل الحزب وتماسكه وفعاليته

وتحالفاته.

من غير المطلوب، من حزب الله، التخلي عن المرجعية الدينية، وإنما إعادة تفسيرها وتنظيرها في سياق «فقه التحرير»، ووفقا لثلاثة خطوط، هي: أولاً، تبني الفكرة القومية، المشرقية والعربية؛ وثانياً، معاداة الرأسمالية وتبني مشروع التنمية الوطنية الشعبية والديموقراطية الاجتماعية؛ وثالثاً، تبني مشروع الدولة المدنية العلمانية.

وفي التراث الديني للحزب، أصول لكل ذلك؛ فآل البيت هم أشرف العرب، وموئل التشيع هو الهلال الخصيب، والحسين فدائي من أجل العدالة الاجتماعية أولاً، وفي منطق الإمام علي، علمانية إسلامية إنسانية، يحددها قوله: «الناس اثنان: أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق». ويمكننا أن نضيف في السياق نفسه: نظيرٌ لك في القومية، وفي المواطنة، وفي الفئات الاجتماعية الكادحة.

(2)

في المشرق، كانت الأديان والمذاهب، دوماً، عناوين سلطوية وعصبيات مفروضة على العامّة، الذين لم يعرفوا، في واقع الحياة، سوى دين واحد هو دين الفلاحين، المرتبط بثلاث عقائد رئيسية، لا تعبّر عن المقدّس، بقدر ما تعبّر عن حياة الفئات الفلاحية الشعبية، وتطلعاتها نحو السلام والأمان والغِلال؛ أو ربما نكون أكثر دقة إذا ما قلنا إن تلك الحياة وآلامها وآمالها هي، بالذات، ما أصبح قدسياً. العقيدة الأولى هي عقيدة البطل الفرد المقاوم الشهيد: أدونيس، إنانا، المسيح، الحسين؛ والفكرة المركزية التي يلخّصها البطل القديس، هنا، هي فكرة المسؤولية الإنسانية الفردية إزاء مقاومة الظلم، حتى لو تخلى المظلومون عن قضيتهم.

والعقيدة الثانية هي عقيدة عودة البطل المقدس، مرة أخرى، مدججاً بقوة التاريخ التي ستنهي المظلوميات والصراعات، وتحل عهد الأخوة الإنسانية المشتهى.

أما العقيدة الثالثة، التي سأقف عندها اليوم، فهي العقيدة الحيّة للصراع الاجتماعي، المرتبطة بالبطل الهُمام، نصير الفلاحين، القادر

على مواجهة الظالمين، وتأمين سلامة المجتمع الفلاحي، ضد الوحش الصحراوي؛ إنه جينورجيوس (الفلاح أو المزارع)، ومن أسمائه جاورجيوس ومار جرجس وجاورجس وجريس وجورج. ونصير الفلاحين هذا له لقب يلتصق به دوماً هو (مار ـ السيد)؛ وسُمّي بالعربية (جرجة)، لكن لقبه الشعبي هو «الخضر لَخْضر» الفتى المقدام، صاحب السيف الذي لا يهزم. وهو الإمام علي: «لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار». تقول النساء المسلمات والمسيحيات في الأردن، لِرُقْية أولادهنّ: «اللّه وعلي».

لقد درستُ الدين الشعبي في شرقي الأردن، ووجدت فيه مسرحاً نموذجياً للصراع بين العشائر نصف البدوية، نصف الفلاحية المستقرّة في الجبال والسهول، العشائر التي تزرع القمح وترعى الخراف والماعز ـ بما يفرض عليها التنقل المستقر في حيز محدود، وبين بدو الجَمل، أي عشائر الصحراء، غير المنتجة، والتي تحصّل معاشها بالغزو في معادلة «الأهل والغنيمة».

وجدتُ أن دين العشائر المستقرة ـ قبل قيام الدولة والمؤسسات الدينية الحديثة ـ كان، على تعدد الأديان والمذاهب، واحداً، يتمحور حول: «الخضر لَخْضر». ومن الواضح أن الاسم يرتبط بالزراعة، وكانت مقامات الخضر مشتركة بين المسلمين والمسيحيين، بل إنها كانت تُشاد في أماكن متوسطة بين التجمعات السكنية، كما هو حال مقام الخضر بين ماحص (المسلمة) والفحيص (المسيحية) في البلقاء الأردنية.

لم يكن دين الخضر منفصلاً عن الحياة وصراعاتها الفعلية، فقد كان الخضر يتجسد في قوّة قبلية منظمة من مقاتلين أشداء، تقودها نخبة تنسب إلى آل البيت. وهكذا تكتسب شَرطي القوة والقداسة معاً. وهي، نفسها، تدير عملية زراعية خاصة بها، وتنتصر للفلاحين في مواجهة اضطهاد بدو الجَمَل وسواهم من المضطهِدين السلطويين. ولطالما تجسدت هذه الرؤية الدينية في علاقة سياسية. ومثال ذلك، انتصار قبيلة «العدوان»، التي تنتسب قيادتها إلى آل البيت، إلى فلاحي الفحيص ضد الإمارة الغزاوية. والحوادث التي قاتلت فيها قبائل توحدت وراء قيادة من آل البيت، لمصلحة الفلاحين في القرون 17 و18 و19، كثيرة في التاريخ الاجتماعي الأردني. وهذا نموذج يمكن تلمُّسه في أنحاء عديدة من بلاد الشام والعراق، حيث اتخذ أشكالاً عديدة لا تمسّ جوهره.

لم يكن التنظيم الاجتماعي ـ السياسي في الجزيرة العربية، بعيداً عن هذا النموذج، فالقسم الأساسي من الأسر الحاكمة ـ الحامية في مناطق الجزيرة، كانت نخباً قبلية تنتسب إلى آل البيت، ونظمت قوة مقاتلة، وجمعت حولها فئات منتجة من مزارعين وصيادين وغطاسين وملاحين، في مواجهة بدو الجَمَل الجوّابين الغزاة. وخلال الصراع، تبنّت قبائل الأهل والغنيمة الدين الوهّابي لتكوين قوة مقاتلة، مقدسة، تهزم التحالف المقاوم القائم بين النخب المنتمية لآل البيت والمقاتلين والمنتجين، وترابطها الأيديولوجي القائم على صيغ محلية عديدة من التشيّع الشعبي.

وليس من دون معنى، تلك الاتهامات التي تساق حول الأصول اليهودية لمحمد بن عبد الوهّاب، مؤسس «الوهابية»؛ وبغض النظر عن صحة تلك الاتهامات، فإن الأصول الفكرية للوهابية ـ وكل مدارس السلفية والإسلام السياسي المنبثقة منها أو التي تدور في فلكها ـ هي يهودية تلمودية، تنتمي إلى تقاليد الإله (يهوه)، رب الجنود، القتّال، الغازي، رئيس عصابة اللصوص باسم الرب الذي يأمر بقتل الأغيار وتدمير بلادهم وسبي نسائهم وحرق الحرث والضرع (ثروة الفلاحين).

هذا ما فعلته وتفعله الوهابيّة منذ غزواتها الأولى في الجزيرة والعراق وبلاد الشام، وما زالت تفعله، مدججة، من دون أن تتغير، بالبترودولار والدعم الامبريالي للغزاة، من صهاينة ووهّابيين.

في هذا الزمان، نزعم ان المقاومة قد أعادت تأسيس الدين المشرقي، نضالاً وروحاً؛ فالخضر لَخْضر.. لا يموت.

(3)

أستخدم، وأدعو لاستخدام مصطلح «الفاشية الإسلامية» في وصف التكفيريين والطائفيين والمتزمتين من أتباع الوهّابية وفروعها والإخونجية وفروعها التابعة للخط الإرهابي الذي بلوره سيد قطب، في كتابه «معالم على الطريق»، كما في تفسيره المعروف «تحت ظلال القرآن». ولا توجد منظمة إرهابية تزعم انتسابها إلى الإسلام، إلا أن تكون وهّابية أو إخونجية في أصولها أو نهجها أو منهجها الحركيّ؛ فحتى المنظمات الشيعية التي مارست الإرهاب، ردحاً من الزمن في العراق، كانت تمثّلت منهج الإخوان.

والفكرة المركزية الحاكمة في جميع الحركات الإسلامية أن الجهاد نوعان: دفاعي يندرج في مفهوم المقاومة الوطنية، كما هو حال حزب الله أو جهاد هجومي (جهاد الفتح)، كما هو حال المنظمات الإرهابية.

الجهاد الدفاعي ـ المقاومة ليس فكرة إسلامية خاصة، بل هي

فكرة أساسية لدى كل الشعوب بغض النظر عن الدين والعرق؛ لكن تنظيمات المقاومة الإسلامية، تتخذ من التعبئة الدينية وسيلة للتعبئة والتجنيد والحفز على التضحية، لا في سبيل سيطرة شريعة دينية أو أفكار دينية، وإنما في سبيل الدفاع عن الوطن والمجتمع، بلا تمييز.

أما الجهاد الهجومي، فقد عرفته اليهودية والكنيسة الغربية في العصور الوسطى، لكنه يرتبط، فقهياً، بالإسلام، وبالاستناد، تحديداً، إلى تفسير لاتاريخي لسورة التوبة.

وليس هدفنا، هنا، الدخول في حوار فقهي، ولكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن الجهاد الهجومي ليس هو المنهج العام في الفكر الإسلامي، بل هو منهج خاص يرتبط، على المستوى الفردي، بنزعات سيكولوجية مَرَضية لإطلاق الغرائز البدائية (القتل والسطو والاغتصاب)، ويرتبط، على المستوى الاجتماعي ـ السياسي، بالبداوة والعصبية القبلية وعقلية «الأهل والغنيمة».

وضع الإمام علي إطاراً فكرياً لاستبعاد النص الديني عن السجال السياسي، حين وجّه ابن عباس الذاهب إلى مفاوضة الخوارج، فقال: «القرآن حمّالٌ ذو وجوه؛ تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسُّنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً». ثم إنه وضع حدّاً لكل صراع ديني أو ثقافي أو عرقي، حين قال «الناس اثنان؛ أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق». وهي رؤية إنسانية مبدأية لا مكان فيها للتكفير أو العنصرية أو الغزو أو إخضاع الآخرين..

الخ. وبالإضافة إلى المدارس الإسلامية العديدة التي تتبع إنسانية عليّ، هناك المدارس الإنسانية، الصوفية والعقلانية والواقعية، ما صنع ما يُعرَف بالإسلام السنّي الشامي. ولا أريد الاسترسال، ولكنني قصدت، فقط، القول إن مصطلح «الفاشية الإسلامية»، لا يشير إلى الإسلام، وكأنه كلّه فاشيّ، بل إلى نهج ومنهج عيانيين، يرتكزان إلى تفسير خاص للإسلام. وهو تفسير يلغي عشرات الآيات المطلقة المعنى الحاثة على التعددية، لصالح آيات محددات مرتبطات بحوادث تاريخية في سورة التوبة، وتحث على مقاتلة الكافرين والمشركين والكتابيين. وهو ما فتح باب تكفير المسلمين أيضاً، بادعاء احتكار الإسلام الحقّ، واعتبار كل مَن لا يخضع لهذا الادعاء، كافراً أو مشركاً، وجبت، تالياً، مقاتلته.

لماذا لا نكتفي، إذاً، بمصطلح «التيارات التكفيرية»؟ لأنه مصطلح يحيل إلى سجال ديني، بينما الظاهرة التي نواجهها، في العالم العربي اليوم، هي ظاهرة اجتماعية ـ سياسية، ينطبق عليها الوصف بأنها فاشيّة.

لن نقفز، هنا، عن الإشكال الناجم عن استخدام المحافظين الجدد واليمين الغربي، مصطلح «الفاشية الإسلامية»؛ فهؤلاء انطلقوا من صراع الأديان والحضارات، ووصفوا ظاهرة إرهابية، كانت لهم اليد الطولى في تصنيعها، بالفاشية على أساس «أخلاقي»؛ غير أن ذلك لا يُفسد المصطلح بمعناه العلمي.

الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية والعسكرية اليابانية والحركات

المشابهة الأخرى التي عرفتها أوروبا، قُبيل الحرب العالمية الثانية، وتسببت في نشوبها، كانت تعبيراً عن لحظة عصيبة من لحظات أزمة الرأسمالية العالمية في مواجهة المدّ الاشتراكي والعمالي. وقامت تلك الحركات على أساس التفوّق العرقي والحق المطلق في إخضاع الآخرين بالقوة، للأعراق الأفضل. وكانت الفاشية تنطلق من استعادة الإمبراطورية الرومانية، تماماً كما يريد الفاشيون الإسلاميون استعادة الخلافة. وقد رأى الغرب في الحركات الفاشية، بألوانها، حلاً لأزمة الرأسمالية بوقف الصراع الطبقي وفرض زيادة الإنتاجية في الداخل ونهب الأمم الأخرى وتدمير الاتحاد السوفياتي؛ ثم وجد الغرب، بعد التواطؤ مع الوحش الفاشي ـ النازي، أنه سوف يسحق الجميع؛ وعندها نشأ تحالف دولي كالذي يطرحه الروس والإيرانيون وسوريا وحزب الله، اليوم، في مواجهة الفاشية الإسلامية.

لِمَ هي فاشية؟ داعش والنصرة وسواهما من التنظيمات الإرهابية، ليست امتداداً بسيطاً ـ لـ «القاعدة»، التي استعملتها الولايات المتحدة سابقاً، في أفغانستان ثم العراق، ولكنها تعبير عن انحطاط شامل ناجم عن استفحال أزمة النظام العربي الذي بات يقوده، منذ السبعينيات، النظام الخليجي. والأخير لم يعد، كما يتوهم الفكر اليومي، تابعاً للرأسمالية الغربية، بل تحوّل إلى شريك، مأزوم مرتين، مرة بسبب تداعيات الأزمة الرأسمالية العالمية التي انفجرت منذ عام 2008، بينما يشهد العالم صعود قوى اقتصادية جبارة كالصين، ومرة بسبب تأزم النظام الإقليمي العربي،

في مواجهة الفشل في حل قضايا التنمية والتحديث والديموقراطية الاجتماعية والسياسية.

على هذه الخلفية، الدولية والإقليمية، اندرجت الحركات السلفية الجهادية والإخوانية و«القاعدة».. الخ، في حركة فاشية عنوانها الكبير ما أسمي «الدولة الإسلامية» (داعش)؛ وهي، كما الفاشية ـ النازية الأوروبية، تستند إلى يمين جماهيري ولّده تفسّخ نظام اجتماعي ـ سياسي مأزوم.

دعوة السيد حسن نصر الله إلى حلف شامل، يطوي جميع الخلافات جانباً، لمواجهة «داعش» وأخواتها، هي صرخة الضمير التاريخي؛ صرخة سوف يجد الجميع، غداً، أنفسَهم منخرطين بما تدعو إليه، أو نادمين على التواطؤ مع إرهاب سوف يجعلهم يدفعون الثمن حتماً.

(4)

لم يكن لديّ شكٌ في أن السيدة فيروز تحبّ السيد حسن نصرالله؛ لكن لزياد الرحباني، في مقابلة حسّاسة وذكية مع موقع «العهد» الإخباري في 16 كانون الأول 2013 - وهي أجمل من معظم مقابلاته الأخرى - فضّل تحويل الحدْس إلى خبر. ولا أعرف متى يمكن أن يتأكد حدْسي بأن نصرالله من محبي أم زياد، إلا أنني أرى الصورة كالتالي: من غير الممكن ألا تكون الصلةُ الروحيّةُ حاضرةً بين أرقى شخصيتين أنتجهما المجتمع اللبناني، الأسطورتين المكتظّتين بغنى الروح والأسرار الكونية، بالإبداع والحضور الساحر والحياء؛ كل ما جسّدته فيروز من وقفات عز وطنية وإنسانية على المسرح، جسّده نصر الله على مسرح الواقع؛ الأولى، كمنارة ثقافية إنسانية، تستطيع، مكتفيةً بما ولّدته فينا من طاقة التحرّر والمحبة، أن تلوذ بالصمت المثقل بالمعاني، بينما الثاني، كزعيمٍ سياسي، مضطرٌ للظهور والقول.

لولا الضرورة النضالية والالتزامات السياسية، أحسب أن نصرالله، كان ليفضّل، كفيروز، الصمتَ، تاركاً لطاقة المقاومة أن

تفعل في أرواحنا من دون خطابات. لكن الأرشيف الذي يحتفظ به فنّان ومثقف في وزن زياد، لتلك الخطابات، يعني أن فيها ظلالاً فنية ما، روحاً ما، لا نقدر، نحن الغارقين في خضمّ السياسة اليومية، ادراكَها؛ ليس الأرشيف ذاك، عند عبقريّ جيلنا، عبثاً. سيأتي زمانُه الفني. كيف يكون؟ ومتى؟ ذلك في علم المفاجآت. عند فيروز ـ وعاصي ـ الأمر أبسط: أشعر، مثلاً، في تداخل الأزمان والمعاني، أن المقدمةَ الموسيقيّةَ لمسرحيّة «جبال الصوان»، قد كُتبتْ لمقاومي حزب الله، نشيداً.

في الرطانة اليسراوية اللبنانية، نقدٌ ساخر لصورة الوطن الذي تغنّيه فيروز؛ ولكن ألا يحقّق نصرالله ـ ورجالُه ـ في الواقع، ملامحَ أصيلةً من تلك الصورة؛ «بَعْدا جْبال الصوّان... عمّ بتقاوِم/ زحف الزحف عليها/ وقع الويل عليها...»، لكنها لا تركع ولا تهرب ولا تخاف.

الزحف لم يعد يأتي، فقط، من جهة الجنوب، دائماً لم يكن يأتي، فقط، من جهة الجنوب، لكن التحالف بين تل أبيب والرياض، اليوم، صار على المكشوف؛ ما نكص عنه جيش الاحتلال، يندفع لتحقيقه الآن، رجال آل سعود، والتكفيريون الإرهابيون؛ والهدف واضح: ضرب أمن بيئة حزب الله، وأمن قواعده، وأمن مؤسساته، من الخلف، بالاغتيالات والمفخّخات. والخطة السعودية ـ الإسرائيلية، حتى لا تكون هناك أوهامٌ، متسلسلةٌ نحو التصعيد: إرهاق المقاومة داخلياً، واضطرارها إلى

الانكفاء، منهكةً وجريحةً، سورياً ولبنانياً، مقدمةً للانقضاض عليها بآلة الحرب الصهيونية.

بندر بن سلطان، يمهّد للانتقام التلمودي من هزيمة 2006؛ فلقد فَتَح «الربيع العربي» الأسود، السياقَ للخلاص من «جبال الصوّان» المتمردة من جنوب لبنان إلى دمشق. والسلاحُ الفعّالُ هو الكراهية، ذلك الشيطان الذي يفرّ هارباً من صدى الأغنيات الفيروزية، خصوصاً، حين تكون «المحبة غضبا».

السعودية تشن حرب الكراهية على سوريا ولبنان والعراق والبحرين واليمن. ليس عندها، قيودٌ من أيّ نوع على القتل العَمْد لبسطاء الناس؛ يخسر مجرموها في المعارك العسكرية مع الجيش السوري، فتقصف، عشوائياً، بلدتين محاصَرتين يسكنهما كادحون شيعة في الشمال السوري: المزيد من الموت لـ «الأغيار»: شيعة «نُبّل» و«الزهراء» في ريف إدلب، بعد العلويين والمسيحيين والدروز ـ والسنّة غير الوهابيين ـ من ريف اللاذقية إلى أحياء دمشق إلى عدرا، وبينهما «الضاحية» والجنوب.

فيروز ونصرالله. هذا هو ردّ المشرق المتمدن على صحراء الوهابية: المحبّة المسلّحة؛ لن نكره وسنقاوم! لن تغرق القلوب التي تحمل «جبال الصوان» على أكتاف الزمن، في وحل الكراهية، بل تفور بكرامة الغضب المقاتل؛ قرار المقاومة، روحاً وفكراً وقلماً وفناً وسلاحاً، ألاّ تكره، ألاّ تقاتل الضحايا، بل تكسر قلاع التلمود الصهيو- وهّابية، وتحرّر البشر: «يا ريت فييّ دوّر حرّزْ هلعبيدْ!»

«سر». لاسري صغير في مقابلة صحفية، سر يخشى زياد، كالطفل، أنه أفشاه، يضيء فرح إعادة الاكتشاف: الغضب لا الكراهية، المقاومة لا القتل، أخوّة الخَلْق، الذين لا يجعلهم دين أو مذهب أو إتنية، «أغياراً» للذبح، كما لدى التحالف السعودي - الإسرائيلي، بل أخوةً ونُظَراءَ ومواطنينَ أحراراً.

فيروز ونصرالله. ليس ذلك جديداً؛ إنها «إسوارة العروس» نفسها... المشغولة بالذهب وبالدم، بالوعد والإرادة... وقد رأينا بريقها، ولمحنا، وسط القهر والألم والدموع، انتصارها الآتي من القدس إلى دمشق وبغداد وبيروت وعمان، إلى أنطاكيا... وسائر المشرق!

(5)

من أجمل النصوص في تراث كارل ماركس نص قصير لاستمارة صحافية شخصية نشرت في ستينيات القرن التاسع عشر، أضاءت على المفاصل لشخصية أهم مفكر عرفه التاريخ، ما لم تضئه نصوص فكرية وسياسية، وجرى استخدامها في مقاربات بحثية للماركسية، منها، في التأليف العربي، كتاب سالم حميش، «في نقد الحاجة إلى ماركس» (1983)

من ذلك النص الماركسي: «الصفة التي أحبّذها أكثر هي، عموماً، البساطة، وعند الرجل: القوة، وعند المرأة: الضعف. فكرتي عن السعادة: الصراع، وعن الشقاء: الخضوع. لوني المفضل: الأحمر. صحني المفضل: السمك. شعاري: يلزم الشك في كل شيء. حكمتي المفضلة: لا شيء إنسانياً غريب عني.»

وفي رأيي، فإن المقطع المتصل بالحياة الشخصية للسيد حسن نصرالله، (في المقابلة التي أجراها الزملاء في «الأخبار» معه، ونُشرت في 14 آب 2014، بعنوان: بين تموزين، قائد المقاومة

يتذكّر،) إضافة إلى طرافته المدهشة بالنسبة إلى محبّي السيد، بالغ الأهمية من أجل قراءة معمقة في عقل قائد المقاومة ووجدانه. صحيح أن التحفظات المفهومة أوقفت التسلل إلى شخصية السيد، فلم تكن هناك أسئلة وأجوبة حول الحب والمرأة والألوان وما شابه، كما ورد في المقابلة مع ماركس، ولكن هذا القدر الممكن من التصريحات حول كرة القدم والأطعمة المفضلة والأماكن المفضلة في لبنان والفيسبوك والفضائيات والقراءات واعتياد التنقل السري... إلخ، ربما يكفي جزئياً للإطلالة على دواخل السيد.

المدهش، مع ماركس كما مع نصرالله، أن التعقيد الاستثنائي للمهمات الفكرية والسياسية، والقدرة الفذة على القيام بها، لا يصيبان الوجدان الشخصي بتعقيد مماثل. ماركس كان يحب في المرأة، كأي رجل طبيعي، «ضعفها»، وكان السيد يحب الملوخية والمجدرة والسمك، قبل أن تلزّه الظروف الكفاحية الدقيقة أمنياً إلى الكفّ عن اشتهاء الطعام والرضا بالمقسوم، بلا تذمّر. كأنه أصبح، أي ذلك الرضا، عادة متأصّلة. هذا يتطابق مع القدرات النفسية لشخصيّة «مسيحية» ـ حسينية، لكن من دون تعالٍ على الآخرين بالتسامي. ينطبق ذلك على اعتياد الرجل التغيير المستمر لفراشه وغرفة نومه، ما يستنزف، طبيعياً، القدرة على النوم في الأحوال العادية.

يحب السيد كرةَ القدم. وكان يلعبها حتى بعدما وضع العمامة على رأسه، وكان معجباً باللاعب الأرجنتيني، مارادونا. يعني ذلك

أن نصرالله رُبّيت أحاسيسه خارج الدوائر النفسية للمثقفين الذين يرون في شعبية كرة القدم ضرورة نفسية للانفصال عنها. من الطبيعي أن يكف الرجل، بسبب العمر والمسؤوليات الجسام، عن هواية مشاهدة الميدان الكروي، والتمتع باللعب. أقله من أجل المشاركة الوجدانية مع نجله (حضرا معاً المباراة النهائية للمونديال؛) وتلك لفتة صغيرة لقوة أحاسيس الأب لدى أسطورة المقاومة.

«بعلبك» هي البقعة المفضّلة من لبنان عند السيد. يعزو السبب إلى صداقات كوّنها أثناء إقامته فيها؛ من تجربتي، أهل بعلبك والبقاع عموماً هم أقرب اللبنانيين إلى الطباع العربية، والصداقات العميقة. تلك العلامة باقية في وجدان السيد، من أزمنة العيش في الزمكان. الآن، علاقة نصرالله بلبنان ذهنية، ولذلك لم يعد يفضّل منطقة على أخرى، يحبها كلها؛ الحب، بهذا المعنى، موقف، وليس وجداناً. وهذه نقطة ضعف نفسية أنتجتها ظروف القيادة والحرمان من الحياة الاعتيادية بسبب الاحتياطات الأمنية. من طبائع الإنسان تعلّقه بمنطقة ما، طبيعة وبيئة وناساً، لذلك كان تعلّق نصرالله ببعلبك أقرب إلى تكوينه باعتباره واحداً من الناس.

لكن نصرالله يتجوّل. لا يمكنه العيش في برج، ولا يمكنه الاستسلام للاعتبارات الأمنية. فالرجل ليس خائفاً في دواخله. وهو ما يسمح له بمعادلة الحركة والتجوال والعيش في المنازل، ولكن في شروط السرية التي يضبطها الأمن لأسباب موضوعية لا

ذاتية. يعرف السيد الضاحية، يألفها بأحيائها وشوارعها وناسها. يتابعها، كما الجنوب والبقاع.

اختيارات السيد من المسلسلات التلفزيونية والأفلام، سياسية ودينية؛ أي إنه ليس مشدوداً إلى الجماليّات الدرامية. ونستطيع أن نقدّر ذلك، ما دام الرجل لم تتح له فرصة تكوين حساسية ثقافية في هذا المجال، مع أنه، كجميع الشبان المتفتحين في بلاد الشام، قرأ جبران خليل جبران. و«جبران» محطة ثقافية ـ نفسية ظلت إجبارية لأجيال؛ عادة يتجاوزها المرء، وينساها، لكنها تترك أثراً عميقاً في التكوين النفسي اللاحق؛ التسامح والمحبة بمعناها الشموليّ، تحديداً محبة الخَلق، ورفض احتكار الخالق.

على نهج المثقفين الباحثين الجادين، يربط نصرالله قراءاته بالقضية المركزية المطروحة في المرحلة، من أجل التأسيس النظري لمجابهة التحديات الفكرية. التحدي الآن يكمن في مسألة التكفير. من المؤسف أن مرجعية السيد في القراءة حول التكفير لا تزال كتباً دينية، سنية وشيعية، مع أن فهم هذه الظاهرة مستحيل إلا بالخروج من هذا السياق إلى سياق أوسع، وخصوصاً لدى الماركسيين، كحسين مروة وهادي العلوي وسمير أمين والعفيف الأخضر... إلخ.

المقاوِم مقاتلاً في سوريا

خطواتٌ نحو خطاب التحرر الوطني

على الجبهة السورية؛ المقاوِم مفكّراً

كان خطاب الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، في الذكرى السادسة لحرب تمّوز(18 تموز 2012،) مفصلياً في تطور خطابه الفكري ـ السياسي. السيد، بعدالحرب السورية، ليس هو نفسه، قبلها.

جَبَّ السيد، في هذا الخطاب، التباساتٍ، وسدّ فجواتٍ أساسية عديدة، لطالما لاحظناها في تحليله وفكره. ومنها، مثلاً، نظرته الجديدة للجوهري في المأساة العراقية، ومنها، خصوصاً، دور المنظور المقاوم في بناء صيغة من العلمانية الوطنية. وكنتُ شغوفا بأن أرى أثر ذلك التقدّم الفكري في مناقشة نقدية جدية لخطاب نصرالله لدى مثقف بحجم اليساري المخضرم والباحث المعروف، فواز طرابلسي.

غير أنني ذهلتُ من خفّة الرفيق العتيق في تناوله الخطاب ذاك. في الحقيقة، كان ذلك التناول، مجرد مناكفة مفككة جديرة بثرثرة عابرة في مقهى. وأنا أضنّ بالكتابة المثقّفة على المناكفة والثرثرة، وأحسب أن نشر نص يوقّعه مثقف هو مسؤولية ثقيلة لا مجال

للتسامح بإهمالها كل ذلك الإهمال الذي أبداه طرابلسي في نصه المعنون بـ«حوار هادئ في ذكرى حرب تموز» المنشور في «السفير» (الأربعاء، 25 تموز 2012)

النص المهلهل يبدأ بمناكفة مسطّحة حول مغزى قيام نصر الله بالكشف عن خديعة المقاومة للجيش الإسرائيلي، بما أدى لإفشال عمليته المسماة «الوزن النوعي» الهادفة إلى تدمير مرابض صواريخ المقاومة. ويسخّف طرابلسي ذلك الكشف، متجاهلاً أنه يأتي، رغم ضرورته الدرامية في خطاب جماهيري تعبوي، على هامش سجال فكري سياسي رئيسي بالنسبة إلى المقاومة، ضد طرحين متداولين، وأصبحا ضارّين للغاية في خضم التطورات الإقليمية الحاصلة:

(1) الطرح القائل بالتقليل من أهمية إنجاز المقاومة اللبنانية في حرب تموز، وخصوصاً لجهة إنكار وقوع الهزيمة الإسرائيلية. وقد استشهد خطاب نصر الله بنصوص عديدة لقادة إسرائيليين يعترفون فيها بهزيمة إسرائيل في تموز صراحة. وبينما يتحدث الإسرائيليون عن انجاز يتمثّل في عملية «الوزن النوعي»، أراد نصر الله أن يبدّده بالكشف عن كونه، في الحقيقة، فشلاً.

(2) الطرح القائل بتراجع قدرات حزب الله بسبب الأزمة السورية، وبسبب انخراطه في الشأن الداخلي على حساب جهوزيته القتالية. وقد بيّن نصر الله أن للحزب اليوم قدرة قتالية ذاتية تمكّنه من التصدي لعدوان محتمل، وأن لديه أجهزة تركّز جهودها على محور واحد هو محور الصراع مع العدو الصهيوني.

المقصودان بهذه الرسالة ليس طرابلسي بالطبع؛ وإنما إسرائيل لردعها عن التفكير في العدوان. وهذا هدف مشروع وصحيح. وجمهور حزب الله، لطمأنته وشدّ أزره في مواجهة الحرب النفسية الإعلامية التي تشنّها شبكة معادية من الفضائيات والصحف والمواقع الإلكترونية و«المثقفين»، ضد المقاومة، قدرةً وثقافة.

ويماحك طرابلسي حول الدعم السوري للمقاومة: هل هو هبة أم لمصلحة؟ ويسترسل في سؤال صاغه في جملة طويلة مضطربة ومفككة ومختلطة الضمائر، بحيث لا يمكننا أن نستشهد بها، لكن مضمونها يقول إن الصواريخ السورية المهداة للمقاومة دفع ثمنها الشعب السوري من لحم أكتافه... الخ. طبعاً! ونحن لا نماري حين نقول إن السوريين سددوا أثماناً باهظة من التضحيات، بما فيها احتمال القمع السياسي والفساد، تقديراً لنهج المقاومة المكلف، لكن ليس بسببه. ذلك أن هناك فارقاً نوعياً بين تنديدنا بالتناقض بين نهج الاستبداد والفساد ونهج المقاومة، وبين الربط السببي بينهما. في الحالة الأولى، نكون في موقع نقد أسلوب الحكم والمستفيدين منه، وفي الحالة الثانية، نكون في موقع نقض المقاومة.

الشعوب هي التي تصنع القدرات الدفاعية بتضحياتها، لكن الأنظمة هي التي تقرر استخدام تلك القدرات، وفي أي اتجاه. ومن الواضح أن النظام السوري بقيادة الرئيس بشار الأسد، عمد، كما أوضح نصر الله، إلى تقديم الدعم اللامحدود إلى المقاومة اللبنانية والفلسطينية (ونضيف: العراقية) حتى عندما كان ذلك السلوك

يهدده في الصميم. وهذا دليل جدية وإخلاص بممارسة استراتيجية «الدفاع خارج الأسوار» الموروثة من عهد الرئيس حافظ الأسد. وبها تتحقق، بالطبع، مصلحة سوريا في إدامة الصراع مع إسرائيل في ظروف انعدام إمكان شن حرب تقليدية ناجحة، وصولاً، كما في كل صراع، إلى نتائج سياسية، لكن ما أضافه نصر الله، من خلال ما يعرفه مباشرة من معلومات، هو أن نظام بشار الأسد تحول إلى شريك ورفيق سلاح للمقاومة من جهة، وركّز، من جهة أخرى، على إعادة هيكلة جيشه بحيث تحوّل إلى قوة عسكرية قادرة على خوض حرب كبيرة ناجحة.

هنا، نرى أهمية ما يستعيده نصر الله من دروس حرب تموز التي أثبتت، بالملموس، تراجع أهمية سلاحي الطيران والمدرعات في الحرب، لصالح سلاحي الصواريخ والقوات الخاصة. وهو استنتاج أصبح متداولاً بين الخبراء العسكريين. ومن الواضح أن النظام السوري، كما يقول نصر الله، عكف خلال السنوات العشر الماضية على إعادة بناء قدراته الدفاعية على أساس هذا الاستنتاج، وطوّر صناعاته الحربية، وخصوصاً في مجال الصواريخ، بما مكّنه من النجاح في ملاءمة خططه الجديدة وتجهيزاته معاً.

ويريد نصر الله، أن يطمئن جمهوره، من خلال هذه المعلومات، إلى قدرة الجيش السوري على صد عدوان خارجي، كما يريد الكشف، باسم سوريا، عن تلك القدرة درءاً للعدوان المحتمل. لكن الجوهري، هنا، أن النظام السوري كان يمضي نحو

المزاوجة بين استراتيجية الدفاع خارج الأسوار واستراتيجية الحرب على الأسوار. وهو ما يضعنا، أحبّ طرابلسي ذلك أم لا، أمام تطور فعلي في استراتيجية مقاومة متشابكة تضم الجبهتين اللبنانية والسورية معاً، بصورة متعاضدة ومتداخلة، بحيث إنه لم يعد بإمكاننا القول إن أحداً يستخدم أحداً، وإنما نحن أمام بنية واحدة.

هنا، يمكن للمثقف النقدي المسؤول، ويجب عليه، أن يطرح السؤال الآتي: هل كان بشار الأسد يظن أنّ بالإمكان تطوير استراتيجيّة وقدرات المقاومة بمعزل عن السياسات الاقتصادية ـ الاجتماعية الملائمة لها في الداخل؟

يذهب تحليلي إلى أن الأسد، المعجب إعجاباً شديداً بنصر الله وبتجربة حزب الله، تصوّر أن بإمكانه أن يركّز، كما يفعل حزب الله في لبنان، على شؤون المقاومة، تاركاً البيروقراطية المستبدة والفاسدة تتجمّد وتتعفّن، وتاركاً السياسات الاقتصادية ـ الاجتماعية للنيوليبراليين والكمبرادور. وهي الصيغة المتناقضة التي سمحت للتدخّل التآمري في سوريا منذ2011.

بنية حزب الله المتماهية مع بنية طائفة من طوائف لبنان، لا تضطرها لقمع جمهورها، كما تمكّنها، من خلال المؤسسات المدنية، من تمكين قسم من جمهورها ذاك من تلافي الانسحاق تحت عجلات النيوليبرالية المتوحشة في لبنان، لكن سوريا الدولة لا يمكنها أن تقلّد هذا النموذج؛ ولا يمكنها أن تطوّر مقاومتها دوناً عن إدارتها ومنظومتها السياسية، كما لا يمكنها أن تتخلى عن

القطاع العام والحماية الجمركية وسياسات الدعم الاجتماعي، من دون أن تخسر القواعد الاجتماعية للدولة والمقاومة.

هذه التناقضات القاتلة هي التي كان يناضل شيوعيون وبعثيون وقوميون شرفاء ضدها، طوال العقد الماضي، مؤكدين على ضرورة الانسجام بين المجالات الدفاعية والسياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، في برنامج يوحّد بين المقاومة والتحديث السياسي والتنمية والديموقراطية الاجتماعية. وهذا هو مضمون المعارضة الوطنية الاجتماعية السورية التي تمكنت، بسبب ضغوط الأزمة الراهنة في سوريا، من الحصول على بعض الإعتراف الرسمي السوري بوجهة نظرها. وحين يرفض طرابلسي، الاعتراف بهذه المعارضة، ويعتبرها «مفبركة»، فلأن المعارضة التي يشجعها ويعترف بها هي المعارضة ضد المقاومة، لا المعارضة ضد النيوليبرالية. إنه يصطفّ إلى جانب هيلاري كلينتون وبندر بن سلطان وحمد بن جاسم، وراء جماعات رجعية هي، من حيث بنيتها الفكرية الأساسية، طائفية ورجعية وتكفيرية واستبدادية، وينطوي برنامجها على ضرب كل عناصر الاستقلال السوري، سياسياً ودفاعياً واقتصادياً وثقافياً.

الحزب السوري القومي الاجتماعي، الضاربة جذوره العميقة في أرض سوريا ـ هو، عند طرابلسي، «معارضة مفبركة»؛ فمن المعارضون الأصلاء؟ أهم الإخوان المسلمون؟ أم السلفيون؟ أم العصابات المسلحة؟ أم القاعدة؟ كل هؤلاء لا يريدون الحوار مع

النظام السوري، ليس لأنهم يتناقضون مع استبداديته، فهم أكثر استبداديةً منه؛ (فالنظام السوري لا يقمع، أقله، الحريات الثقافية والشخصية). وليس لأنهم يتناقضون مع نهجه الاقتصادي ـ الاجتماعي، فهم ينطلقون من طروحات نيوليبرالية صريحة شاملة ومتوحشة (بينما النظام السوري يتراجع عن هذه السياسات الآن. وهو، على كل حال، لم يقم، حتى في سنوات الانفتاح، بهدم قطاعه العام)، لكن لأنهم يخوضون حربا طائفية ـ نيوليبرالية، تتطابق أهدافها مع وهّابيي السعودية وقطر وإمبرياليي الولايات المتحدة وعثمانيي أنقرة. وهذا الحلف الأسود هو الذي يمنع، كما قال نصر الله عن حق، التوصل إلى تسوية داخلية في سوريا.

يتذاكى طرابلسي بالسخرية من حديث نصر الله عما تضمره القوى الاستعمارية والصهيونية وحلفاؤها، لسوريا، من خطط تدمير وتفكيك وإلحاق، بوصفه ذلك الحديث، بأنه ضرب من «التعويذات بالمؤامرات المجهولة الفاعلين»! معقول؟ ألا يرى طرابلسي كلّ هذه القوى المحتشدة، محلياً وإقليمياً ودولياً، للقتال ضد النظام السوري، ليصف النظر في ذلك الصراع من موقع المقاومة، بأنه «تعويذات بالمؤامرات»؟ ثم، كيف يعني «مجهولة الفاعلين»؟ ألم تصل إلى عِلم طرابلسي أنباء المجموعات الأصولية والسلفية الجهادية والقاعدية المسلحة في سوريا، وتصريحاتها وأفعالها؟ ألم يخبره أحد أن ملك السعودية ورئيس وزراء قطر قد انضما إلى حزب جان جاك روسّو، واستلاّ ملياراتهما لإسقاط النظام «اللاديموقراطي» في سوريا؟ ألم يلاحظ أن واشنطن

وحلفاءها يعلنون، صراحة، عن دعم الإرهابيين في سوريا؟ ألم تقع عيناه على أنصار «القاعدة» الذين جمّعهم رجب أردوغان في مركز باب الهوى الحدودي؟ ألم يتابع مؤتمرات «أصدقاء سوريا» التي عقدها ألدّ أعدائها مراراً؟ ألم يطلع على المحاولات الغربية ـ الخليجية لاستصدار قرارات تحت الفصل السابع بهدف شن حرب أطلسية على سوريا؟ أويظنّ، حقاً، أن تفجير مكتب الأمن القومي في دمشق هو من تخطيط عبدالباسط سيدا وتنفيذ أعوانه؟ ألم يقرأ تحليلاً غربياً واحداً من التحليلات العديدة التي تقرر أن تلك العملية هي عملية استخبارية بامتياز؟

طرابلسي لا يقرأ ولا يسمع ولا يرى أي شيء له علاقة بالأحداث الفعلية التي تجري في الواقع الملموس. إنه يدور حول نفسه، ولا يستطيع الانتباه، وسط كل انفجارات الحرب الكونية الدائرة في سوريا وحولها، سوى إلى ما يراه من «إعادة انتاج حكم عسكري أمني فردي مافياوي يتربّع على رأسه حاكم فرد يتمتع في الدستور الجديد بصلاحيات دستورية مطلقة، تفوق ما كان يتمتع به في الدستور السابق. وهو فوق ذلك كله معفى من أي مساءلة او محاسبة من أي هيئة او مرجعية!»

عظيم حقاً! هكذا تؤكد أنك ليبرالي بامتياز، لكنها ليبرالية تصب في مجرى العرعورية؛ فالذين يطرقون أبواب السلطة في سوريا اليوم بالسلاح يحتاجون إلى مئة سنة لكي يبنوا نظاماً عسكرياً أمنياً فردياً. . . إنهم لن يبنوا حتى نظاماً. . فالنظام يحتاج إلى دولة،

وهؤلاء يشكلون مشروعاً نقيضاً للدولة الوطنية ابتداءً، وما يمكنهم فعله هو تأسيس إمارات ظلامية طائفية تطبق أوامر «هيئة المطاوعة» في السعودية.

أتساءل، أحيانا، بجدّ: هل الليبراليون مساطيل أم أنهم يَسْطُلُونَها عمداً؟ هل حقاً يعتقدون أن الصراع الفعلي هو بين الاستبداد السلطوي وبين أفكارهم الديموقراطية؟ هل يظنون أن ما يدور في رؤوسهم يتحقق تلقائياً بسقوط الأنظمة المستبدة؟ هل يظنون حقاً أن قوى أصولية سلفية مموّلة من الخليج تقاتل «الحكم العسكري الأمني الفردي المافيوي. . .» لكي تطبّق أفكار طرابلسي في جمهورية ديموقراطية؟

في سوريا الفسيفسائية التركيب الطائفي والمذهبي والإتني، لا يمكن للأحزاب الطائفية أن توحد الدولة وتبني نظاماً من أي نوع، بل يمكنها فقط تفكيك الدولة إلى إمارات طالبانية ترتكب الفظائع، ليس فقط بحق أتباع الطوائف والمذاهب الأخرى، بل، أيضاً، بحق كل مخالف في تفاصيل مفسدات الوضوء وطول شعر اللحية! وإلى جانبها ستجد الأقليات العلوية والمسيحية والدرزية والكردية أن من حقها توفير الحماية لأبنائها في دويلات طائفية أخرى (ربما تلتمس الحماية الخارجية). وهكذا، لن يكون هناك، بعد، فضاء سياسي سوري دولتي لإصلاحه ديموقراطياً، ولا قطاع عام، ولا ثقافة، ولا حرية، ولا تشغيل ولا إنتاجية. . . وبطبيعة الحال، لن يكون هناك جيش وطني ولا مقاومة، ليس فقط بسبب دمار الدولة الوطنية، بل

أيضاً لأن الولايات المتحدة والغرب لا يدعمان الانتفاضة السورية المسلحة إلا في سياق يقدم الحماية إلى إسرائيل، وينهي استقلال سوريا، ويحوّلها إلى مجال استعماري صريح.

نعم، ثمة إمكان لانتظام فضاء سوري موحد، لكن، فقط، تحت سيطرة قوة خارجية استعمارية إقليمية. وهذه هي الأحلام العثمانية لأردوغان وصحبه في أنقرة، لكن تركيا نفسها مهددة بالتفكيك، في سياق تفكك سوريا؛ فالدويلتان العلوية والكردية المنشودتان تطرحان تواً مشروعين تركيين موازيين، والجهاديون الذين توفر لهم حكومة أردوغان غرفة عمليات استخبارية في أضنة، سوف يواصلون جهادهم في تركيا غداً.

هذه هي حقائق الصراع الملموسة. ولذلك، تنقسم المعارضة السورية، إلى وطنية أو غير وطنية، ليس على أساس التخوين، وليس بمنحة من نصر الله أو سواه، لكن انطلاقاً من موقفها من الدولة الوطنية. هل تتجشم أعباء الصراع داخل هذه الدولة من خلال تسوية داخلية صعبة ومحفوفة بالمخاطر، لكنها تحافظ على الفضاء الوطني موحداً، أم تلتحق بالهجمة البربرية التي تنطوي على تحطيم الدولة والبلد؟

هذه هي حقائق الصراع: «نظام عسكري أمني. . .» نعم. وهل تريده أن يناقش صد الهجمات الإرهابية في البرلمان؟ أمّا هَبَل! . . حتى في أعرق الديموقراطيات، لا تخوض الدول الحروب وتواجه الإرهابيين إلا بصلاحيات دستورية وتنفيذية مطلقة، لكن الجديد في

سوريا، الجديد الذي يلمح إليه نصر الله، هو أن موازين القوى الداخلية في البلد لم تعد تسمح بإعادة انتاج «الحكم العسكري الأمني الفردي المافيوي. . .»؛ فالتغيير الديموقراطي الشعبي أصبح حتمياً في سوريا، إنما سوريا المستقلة والموحدة. والسؤال المطروح الآن، السؤال الذي طرحه نصر الله على المعارضة الوطنية التي لم تحسم خيارها بالحوار بعد، هو: أدولة وطنية وجيش وطني ومقاومة وإصلاحات ديموقراطية، أم تفكيك الدولة والجيش والإمارات الطائفية؟ هذا هو السؤال الفعلي الرئيسي في سوريا اليوم. وهو، بالطبع، سؤال نضالي. فالطريق نحو سوريا الجديدة ليس مفروشاً بالورود، ويحتاج شقّه وتمهيده إلى نضال دؤوب وتضحيات في ظل صراع مديد مع قوى الاستبداد والفساد، لكنه، مع ذلك، يظل الطريق الوحيد الآمن الكفيل بالحفاظ على الدولة الوطنية السورية.

في ظل الصراع الحالي الفعلي في سوريا، يضع نصر الله يده على مفصل رئيسي حين يحدد الهدف المحوري للهجمة الحالية على سوريا، بأنه يتمثل في تفكيك الجيش السوري، كمقدمة ضرورية لتفكيك الدولة السورية أولاً، وبالتالي إخضاع سوريا للمصالح الغربية والخليجية. لكن تفكيك جيش تشرين أيضاً يحقق غايات استراتيجية مباشرة للعدو الإسرائيلي، من حيث أنه يزيح من أمامه قوة عسكرية تمثل تهديداً محتملاً، وتشكّل داعماً راسخاً للمقاومة اللبنانية والفلسطينية، وحليفاً للنفوذ الروسي في المتوسط، وشريكاً لإيران، المطلوب رأسها إسرائيلياً وأميركياً.

يقول طرابلسي إن النظام السوري هو المسؤول عن مآل تفكيك الجيش الوطني من خلال زجه في مواجهات داخلية. وقد يكون ذلك صحيحاً لو أن في سوريا ثورة ديموقراطية سلمية، لكن الذي في سوريا هو تمرد مسلح مدعوم من قوى إقليمية ودولية، استطاعت أن تحشد عشرات آلاف المقاتلين السوريين والعرب والأجانب في حرب عصابات واسعة ودموية، بحيث تكون الدعوة للاستغناء عن قيام الجيش الوطني بمهمّاته في مواجهة هذا النموذج المزدوج من المتمردين والغزاة، دعوة إلى انتحار الدولة وتفكيك الجيش نفسه، بلا مقاومة.

لدينا لائحة نقدية طويلة على النظام السوري، لكننا اليوم في حالة حرب وطنية في مواجهة حلف استعماري رجعي يهدد الكيان كله، بحيث توجب أدنى متطلبات السياسة العقلانية المسؤولة أن نتحالف مع ذلك النظام ضد العدو المشترك، من دون أن نتخلى، قيد أنملة، عن برنامجنا الديموقراطي الاجتماعي، لكننا، سنتحول، في اللحظة التي نستغل فيها هذا البرنامج النضالي للاصطفاف مع العدو، من مناضلين إلى خَوَنة.

المطلوب الرقم واحد في سوريا الآن، هو دحر الإرهاب وتطهير الأرض السورية من الإرهابيين. وهي عملية لا يستطيع النظام السوري أن ينجزها وحده؛ فالمعركة ضد الإرهاب ليست معركة عسكرية وأمنية فقط، بل هي معركة سياسية تتطلب أوسع تحالف وطني اجتماعي ممكن، في ضوء برنامج وطني وواقعي

للتغيير. وليس بلا دلالة أن أحداً من الديموقراطيين الليبراليين لم يطرح برنامجاً كهذا حتى اللحظة.

يمكن لليبرالي الوطني أن يطرح البرنامج التالي: هزم الإرهاب والتدخل الخارجي غير الشرعي، السلام، إعادة البناء، انتخابات رئاسية وبرلمانية حرة في غضون عام أو عامين. لكن لا! عوضاً عن ذلك، يجب إسقاط النظام فوراً.. ولا حوار مع النظام إلا على أساس استسلامه، وتحويل الشعار الديموقراطي إلى غطاء لإرهاب القوى الأصولية والسلفية و«القاعدة.»

في تعليق طرابلسي على نصر الله، ضرب من تكتيك الثعلب؛ فبينما يحدد نصر الله منطق سجاله من موقع صريح هو موقع المقاومة، يموّه طرابلسي موقعه السياسي؛ فيفتقر إلى المنطق المتماسك، ويتصيّد في نصّه لاهياً. نصر الله يعبّر عن قوة تنطلق من أولوية المقاومة ضد إسرائيل. ومن وجهة نظر التحليل المادي، فإن هذه الأولوية، تعكس، بطبيعة الحال، مصالح اجتماعية وسياسية للجماعة الشيعية اللبنانية، لكن هذه المصالح تتجسّد في نخب متماهية مع أولويتها. ويمثل نصر الله أعلى درجة من التماهي بين المصالح الاستراتيجية والفكرة والشخص. وهذا هو مضمون زعامته التي تعلو على موقعها الحزبي والسياسي والطائفي واللبناني، وتتجلى في شخصية مناقبية، بامتياز. ولا يمكن الدخول في سجال فعلي مع شخصية كهذه إلا من أحد موقعين: موقع النقد من داخل خندق المقاومة نفسه، أو موقع الخصومة والعداء للنهج

ومنطقه. ومنطق نصر الله متماسك: النظام السوري رفيقنا في السلاح، وإسقاط النظام والجيش السوريين لصالح القوى المعادية للمقاومة يمثّل خسارة استراتيجية لحزب الله ومشروعه. يعني ذلك أننا بإزاء قوة مبدأية لم تتزحزح عن مشروعها وسط العاصفة. حزب الله جادّ في أن يكون مقاوماً. لذلك، فإن نصر الله لا يخذل رفاق السلاح في زمن الأزمة، كما فعل خالد مشعل واسماعيل هنية، اللذان قفزا من سفينة ظنّا أنها تغرق، فتخلّيا عن مشروع المقاومة، وانضما إلى المشروع الأميركي ـ الخليجي.

في المقابل، فإن طرابلسي ـ وما يعنيني هنا كونه نموذجاً للمثقفين المتحولين من الماركسية إلى الليبرالية ـ لا يتحلى بالاستقامة، ولا يجد في نفسه الجرأة ليقول إن أولويتي هي لبنان ديموقراطي ليبرالي صاف، نموذجي. وهو ما يتطلب، موضوعياً، نزع سلاح المقاومة وإقامة سلام راسخ مع إسرائيل وعلاقات مع الغرب لا يعكّرها مقاومون. هل ذلك ممكن من دون إسقاط النظام السوري؟ لا. إذاً، فإنني أؤيد العاملين على إسقاطه حتى لو كان هؤلاء من جحافل الأصوليين والسلفيين والقاعديين المدعومين من الأنظمة الخليجية والغرب، وحتى لو أدى ذلك إلى تفكيك سوريا. فلتتفكك. بالعكس، فإن في تفككها ضمانة للبنان «المستقل»! هكذا يستقيم منطق طرابلسي وينسجم مع نفسه: الدولة السورية عقبة أمام استقلال لبنان الكمبرادوري الليبرالي. فلتسقط.

لم يلتفت طرابلسي، ولا سواه من المعلّقين على خطاب نصر

الله، إلى نقطتين في ذلك الخطاب، أحسبهما بالغتيّ الأهمية من حيث دلالاتهما الفكرية؛ النقطة الأولى تتعلق بمراجعة جريئة تمثّل نقداً ذاتياً للموقف من المسألة العراقية. فنصر الله، عندما تيقّن من أن صلب الهجمة على سوريا تتعلق بهدف تفكيك الجيش الوطني السوري، استعاد ما جرى في العراق من احتلال مغطىً، سياسياً، من قبل معارضة داخلية طائفية ـ شيعية، فوجد أن هدف تفكيك الجيش الوطني العراقي كان في صلب أهداف الحرب، التي اتخذت شعارات الديموقراطية وحقوق الانسان والمظلومية الشيعية.. الخ. يقول: «عندما دخل الاميركيون إلى العراق، ماذا فعلوا؟ حلّوا الجيش العراقي، لماذا حلّوا الجيش العراقي؟ ألأنهم غير قادرين على أن يديروه؟ لا. فالجيش يتبع أي سلطة سياسيّة. كان يمكن للجيش العراقي أن يتبع السلطة السياسية الجديدة. هذا الجيش الذي للأسف قاتل الجيش الإيراني لمدّة ثماني سنوات، وغزا الكويت وهدد دول الجوار وواجه الشيعة والأكراد والسنة في العراق، حلّوه لأنهم لا يريدون جيشاً قوياً، سلاحه وتدريبه وعقله ليس عند الأميركيين. هذا الجيش سلاحه روسي، تدريبه روسي، ذخيرته روسيّة.. الخ»

في هذا النص، نقد جذري لما كان حزب الله يتبناه من تحليل للشأن العراقي هو أقرب لمواقف القوى الشيعية التقليدية والمنظور الإيراني. اليوم، يكتشف نصر الله في الحرب الإمبريالية على سوريا، حقيقة الحرب الإمبريالية السابقة على العراق. وكان يمكنه أن يتجاوز عن تلك المقارنة التي لا تصب في صالح حلفائه

العراقيين والإيرانيين، لكن نصر الله، لفكره النظامي وشرفه الشخصي، يتبع منطق خطابه بلا التواءات، ويطارد الحقيقة حيثما كانت، وحين يراها يعلنها: «ذهب الجيش العراقي. ماذا لدينا اليوم في العراق؟ لدينا بوليس!»

في هذا المنطق المتماسك علوٌّ عن دواعي التحليل المستند إلى نظرة طائفية، وجرأة على الذات، واستنطاق لحقيقة جارحة، لكنها الحقيقة التي ينبغي إعلانها بشرف، والتي تؤسس لحوار جدي في خندق المقاومة حول الجدل الموضوعي بين الدولة الوطنية والعروبة والمقاومة والتحالفات الدولية، حوار يمكنه أن ينتج رؤية وطنية تقدمية مشتركة بين الإسلاميين الوطنيين والقوميين واليساريين.

النقطة الثانية تتعلق بنزعة نصر الله العلمانية الوطنية الواقعية. نصر الله إسلامي، لكنه - في هذه الظروف من صعود الأحزاب الإسلامية وتسويغها حقها في الحكم، بغض النظر عن برنامجها السياسي، باسم إسلاميتها والحق الإلهي - يكرر قوله: «لا يهم أميركا أن يحكم، في العالم العربي، حزب إسلامي أو حزب عربي أو حزب قومي أو حزب شيوعي. هذا ليس مهماً. ليس مهماً أنك تعمل لحية أو تحلق لحيتك، تلبس كرافات أو لا تلبس كرافات. المهم ما هي سياستك.» وهكذا، فبالنسبة إلى الإسلامي نصر الله أيضاً، لا يهم أن تكون إسلامياً أو يسارياً أو قومياً، المهم ما هي سياستك نحو الحلف الأميركي - الصهيوني. المهم هو الموقع

السياسي الذي تنطلق منه وتنتهي إليه في ممارستك السياسية الفعلية. تقترح هذه المعيارية فضاءً وطنياً وإقليمياً ودولياً لحوارات وتحالفات لا تقوم على الدين والطائفة، بل على الاصطفافات السياسية الفعلية. وهذا هو جوهر العلمانية تحديداً.

في النقطتين السابقتين، تحررٌ فكري وسياسي من الطائفية (من دون التخلي عن الطائفة كواقع اجتماعي سياسي)، وتحررٌ من الربط بين الدين والسياسة (من دون التخلي عن الخيار الإسلامي الذاتي والحزبي)، لكنه تحررٌ يفتح أفقاً للتسويات الوطنية الاجتماعية خارج المنطق الأحادي الاستبدادي للإسلام السياسي التقليدي، المحمول اليوم على الجناح الأميركي الخليجي ليعيد تأسيس أنظمة الاستبداد والاستغلال والاستسلام، تحت لافتة الشرعية الدينية.

على أنني، هنا، آخذ على خطاب نصر الله أنه قارب خروج «حماس» من معسكر المقاومة، مقاربة خجولة للغاية، ولا تتعدى النصح بمخاطر الارتماء في أحضان النظام العربي على القضية الفلسطينية. أدرك، بالطبع، حراجة موقف نصر الله من حيث أن «حماس» هي تنظيم إسلامي سنّي، كما أدرك حساسية تناول الشأن الفلسطيني من قبل حزب الله. لكن آن الأوان لقوى المقاومة والتحرر الوطني أن تحسم أمرها، وتعلن أن فلسطين ليست مجرد شأن فلسطيني يُترَك للفلسطينيين. حمد بن جاسم مارس ويمارس التدخل العلني العميق في ذلك الشأن من وجهة نظر العلاقة العضوية بين الرجعية العربية والصهيونية. وهو أخرج قادة «حماس»

من دمشق، فلم يخرجوا من المكان فقط، بل من الخندق أيضاً. «حماس»، اليوم، انضمت إلى حلف الاستسلام، ويُعاد تأهيلها من أجل أداء الدور الأخطر في تصفية القضية الفلسطينية. وينبغي، مهما كان الثمن، أن تعلن قوى المقاومة، حقيقة «حماس» للفلسطينيين، ليس للتعريض بها، بل لمحاصرة الأضرار الناجمة عن سير «حماس» في طريق التفاهم من تحت الطاولة القَطرية على إدارة الكانتونات التي سيتركها الاحتلال وراء الجدار العازل، منهياً قضية التحرير والعودة.

27 تموز 2012

المقاوِم يستلهم جبران خليل جبران

إنها مرحلة نوعية جديدة من الصراع الدموي المديد في المشرق، تلك التي أعلن عنها الأمين العام، حسن نصرالله. لسنا، فحسب، أمام قرار حزب الله بالمبادرة ـ المتأخرة، بنص كلام نصرالله، سنة ونصفاً ـ إلى كسر فكّي الكمّاشة اللذين يكادان يطبقان على وجوده: إسرائيل جنوباً والإرهاب شمالاً، وإنما، بالأساس، انتقال الحزب، كقوّة مقاتلة، من المحلي اللبناني إلى المشرقيّ، وتالياً العربيّ والدوليّ. بذلك، تحوّلُ المقاومةُ لبنانَ الصغيرَ إلى لاعب إقليمي رئيسي في نتيجةٍ، تحدث كمعجزة تاريخية، جرّاء حساباتٍ خارج الماديّ، بل بحسابات الإرادة والدمّ.

وراء جبران، يكرر نصرالله: «لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني». لكنها، اليوم، أحلام تتجسّد في إرادة فاعلة، وأمانيُّ يسندها العزم والدم... لبناني ـ أنا نصرالله وصحبي ـ مجيد كبير، بحجم استقلاله ودوره.

يليقُ بلبنان هذا الدور لثلاثةٍ: أنه الرائد في العروبة الحضارية، والرائد في الثقافة التقدمية، والرائد في المقاومة الحقيقية. وها قد جاء الوقتُ لكي تصبّ الرياداتُ في المعجزة التي كسرت الشروط الموضوعية وموازين القوى، ووضعت لبنان الصغير، استراتيجياً، في حجم الكبار من دمشق إلى بغداد إلى طهران إلى موسكو، لا بل حوّلته إلى دينامو هذا الحلف المتكوّن في لهيب الضرورة التاريخية لنشوء العالم المتعدّد الأقطاب.

□ □ □

في قلب كل ذلك، فإن حزب الله لا يغامر، ولا يستثمر الدم في دورٍ؛ فالمهمة، بالنسبة إليه، هي، بالدرجة الأولى، مهمة دفاعية بامتياز. ذلك أن المشهد المتكوّن حوله، هو، بالفعل، مشهد الكمّاشة: من الشمال هجمة الجيش التكفيري للحلف الأميركي الخليجي الإسرائيلي، تطلّ على لبنان من غربيّ العاصي، وتكاد تعطّل أهم خطوط الإمداد للمقاومة، ومن الجنوب، تستعد إسرائيل ـ مستغلةً ضغوط الحرب السورية على الحزب والموجة المتصهينة في المنطقة العربية التركية، لشن عدوان انتقامي على جنوب لبنان، لا يثأر، فحسب، لهزيمة 2006، وإنما يطمح إلى تنفيذ مشروعه القديم ـ الجديد، أي اجتثاث المقاومة وتأديب حزب الله، واستعادة ذلك اللبنان الضعيف الأسير في قبضة الردع والتدخل الإسرائيليين، بل ربما إلى استعادة الشريط الحدودي وجيش لبنان الجنوبي أو اتفاقية أكثر اذلالاً من اتفاقية 17 أيار. هكذا

تغدو المعركة ضد الإرهابيين في قصِيْر حمص، هي نفسها المعركة ضد الإسرائيليين في الجنوب اللبناني؛ إنها معركة واحدة، لا بالمعنى الاستراتيجي فقط، بل بالمعنى التكتيكي أيضاً. في القصير يقاتل حزب الله عن مارون الراس.

بلا فتوى، و«بكلمتين»، يستطيع حزب الله أن يجمع حوله عشرات الألوف من المقاتلين المتطوعين لخوض الحرب على الجبهتين، الشمالية والجنوبية. ليس في ذلك محض استعراض للقوة، بل إقرار لواقع يتمثل في قدرة المقاومة على القتال، في آن واحد، ضد التكفيريين والإسرائيليين معاً، بل قل ضد الوهابية ـ الصهيونية، بجناحيها؛ فليحذر الجناحان من الخطأ القاتل في الحسابات. إلا أن المعركة الراهنة الآن، هي معركة تأمين ظهر المقاومة وظهيرها. والانتصار في هذه المعركة، ضروري، فهو، إذاً، حتميٌ بالنسبة لأولئك الذين علّموا التاريخَ أولوية الإرادة، مستعدين، دائماً، لتسديد أتاوته. وهو انتصار سيحفظ لكل اللبنانيين، وطنهم قوياً مستقلاً تعددياً قادراً على استغلال امكاناته وثرواته وتحقيق الأرضية اللازمة للثورة الاجتماعية الداخلية.

□ □ □

لكن لمعركة حزب الله في سوريا، بعدٌ لبناني مشرقي. إنه الدفاع عن روح المشرق التعددي في مواجهة الحملة الهمجية لإلغاء الآخر، بإخضاع السنّي غير الوهابي، بل غير القاعديّ، إلى خيار أن يكون وهابياً قاعدياً قاتلاً أو مرتداً مقتولاً، واجتثاث أبناء

المذاهب الإسلامية الأخرى بالذبح «الحلال»، وتهجير المسيحيين، وتحريم العلمانية واليسار والقومية، واستعباد النساء من كل الملل.

هذه المعركة، معركة المقاومة ضد الهمجية، وحدها، جديرةٌ بأن تُخاض، لا دفاعاً عن الشيعة، بل عن السنّة أولاً، والمسيحيين ثانياً؛ وبذلك فهي معركة الدفاع عن لبنان، الصورة المصغّرة للمشرق التعددي. وقد وهبنا الله الرحمن الرحيم، حزبه المستعدّ ليخوض المعركة، نيابةً عنا جميعاً، جنباً إلى جنب مع جيش المشرق الباسل، الجيش العربي السوري. وطالما أن الهجمة الهمجية من سوريا إلى العراق إلى فلسطين والأردن، تمضي في خط واحد، هو الخط الوهابي الصهيوني، فإن إرادة حزب الله ووعيه وقدراته، تحوّله، اليوم، إلى قوة مشرقية.

□ □ □

على المستوى الإقليمي ـ الدولي، معركة حزب الله المزدوجة، تحوّله الحجرَ الكريمَ الثمينَ الذي يسند جداراً يُشادُ لحرية الشرق كله من الاستعباد الأميركي ـ الصهيوني، ويكتب، بالدم، دور لبنان الاستثنائي في ولادة العالم المتعدد الأقطاب.

27 أيار 2013

المقاوِم.. من دون غطاء سياسي

في ليلة وصباحها (11 و12 حزيران 2013) أقدم تكفيريون مختلطو الجنسيات، يقودهم كويتي، على ارتكاب مذبحة بحق ستين مدنياً من عائلات بلدة حطلة في دير الزور؛ كان نداء الذبح علنياً في المكان، وأراده المجرمون كذلك في كل مكان، فنشروا شريطاً للاحتفال بتطهير البلدة من الشيعة على اليوتيوب، منتشين بقتل رجل دين وولده، ومعتبرين المذبحة انتصاراً للإسلام، وانتقاماً أول من هزيمة القصير. (لم تشهد القصير أيّ مذبحة، بل قتالاً. وحتى مقاتلو «النصرة» سُمح لهم بالفرار الآمن).

تساءلت، وأنا أشاهد الشريط الفظيع، عما إذا كان هناك أمل لمشروع المشرقية الجديدة الذي نطرحه كبديل تاريخي عن فشل المنطقة التنموي وتصدّعها الاستراتيجي وصراعاتها الإثنية والطائفية والمذهبية والجهوية؟ وهو سؤال مطروح للبحث عن مخارج عقلانية من الهوَس الإجرامي لجماعات من المرضى النفسيين الموصوفين لدى الغرب كـ «معارضة»، والذين لا يزالون يحظون بتأييد ما، ربما محدود ولكنه مهووس أيضاً، من جمهور يبارك

المذابح المذهبية. ولا يمكننا أن نغضّ الطرف، بالطبع، عن أولوية الصراع المذهبي على الصراع الوطني عند الحمساويين. ولكن، علينا ألا ننسى أن هؤلاء هم، في البداية والنهاية، من الإخوان المسلمين.

لا يمكننا القبول بفكرة أن الحرب الطائفية والمذهبية، قد تأسست وتجذرت في سوريا والعراق ـ بحيث تلغي تراث المشرق المعروف من التعددية في الوحدة ـ ليس لأن تلك الفكرة بشعة فقط، بل لأنها غير صحيحة، أيضاً. هناك، بالطبع، فئات اجتماعية متخلّفة ترى في مقاتلي «النصرة» و«القاعدة»، ممثليها السياسيين والنفسيين، ولكن الكتلة الرئيسية من سُنّة المشرق، لا تزال بعيدة عن الانخراط في المشروع الوهّابي. الوهّابية والتكفيرية، بعقائدها المتهوّدة وعدائيتها للإنسانية وفتاواها ومقاتليها، ليست سوى غزوة خليجية، منظّمة وممولّة ومدعومة من الحكّام السعوديين والقَطريين وحماتهم الأميركيين والأوروبيين. وكما يحدث دائماً، يجد الغزاة، في المجتمعات المحتلّة، مَن يقلّدهم أو يخشاهم أو ينساق معهم.

لكن، سيصيبك الصداع لمجرّد تداول المعلومات عن ضلوع جماعة حسن عبدالعظيم، رئيس «هيئة التنسيق» الموصوفة بالوطنية والديموقراطية، بأن ذراعها العسكري الكردي يحاصر بلدتي نبّل والزهراء، ويفاوض على تسليمهما للتكفيريين مقابل بلدة كردية! هل هذا صحيح يا هيثم منّاع؟ وإذا كان ذلك ادعاءً، فأين غضبك، وغضب «الهيئة»، إزاء مذبحة حطلة؟

في الشريط، توعّد تكفيريو دير الزور، بأنهم قادمون إلى تينك البلدتين المحاصرَتين بالذات، لذبح أهاليهما، فهل ينبغي لحزب الله أن يغض الطرف عن مذابح جديدة معلَنة، لئلا يسهم الدفاع عنهما بالمزيد من التوتر المذهبي؟ هل ينبغي للشيعة أن يُذبَحوا بصمت ووقار و«شعور عال بالمسؤولية»؟ وهل ينبغي لحزب الله، كما يريد بعض الشيعة، أن يكفّ عن ممارسة دوره الاستراتيجي في دعم ولحم محور المقاومة، لكي تكفّ العنصرية الخليجية عن طرد أبناء الطائفة من وظائفهم ومغترباتهم الاضطرارية؟

صوت أحد المجرمين، في شريط «حطلة» يصرخ فرحاً متشنجاً: «الله أكبر . . . حرقنا بيوت الروافض المرتدين الشيعة . . . النصارى»! في هذا التهليل، ما هو أكثر من الاستنتاج البسيط بأن رقاب النصارى مطلوبة للانتقام الحالي أيضاً؛ فبالنسبة للغزاة الوهّابيين التكفيريين، لم يعد هناك تمييز بين الشيعة والمسيحيين، المطلوب إبادتهما معاً في مشروع التطهير الديني. فهل تقف المذابح عند حدود سياسية؟ هل ستقتصر على سوريا، أم أنها ستمتد إلى لبنان والأردن وفلسطين؟ (في العراق، أنجز التكفيريون معظم المهمة).

يقاتل المسيحيون السوريون ـ كالسنة والعلويين الخ ـ في إطار الجيش العربي السوري وقوات الدفاع الوطني، بوصفهم مواطنين أولاً. بل لعله من حسن الحظ أنه لا توجد تعبيرات سياسية مسيحية خاصة خارج التركيبة السياسية الوطنية في بلاد الشام، لكن الاستثناء

اللبناني يحتاج إلى وقفة؛ هنا، حيث توجد قوى ومنابر مسيحية معلنة، لم يجرؤ أحدٌ منها بعد، على إسباغ تأييد سياسي صريح على مشاركة حزب الله، الشرعية والضرورية والشجاعة، في صدّ الغزوة الوهابية التكفيرية عن بلاد الشام.

في صلب كل التحليلات، كان الغطاء السياسي الذي قدّمه التيار الوطني الحر للمقاومة، في الحرب الدفاعية ضد العدوان الاسرائيلي في 2006، أساسياً لانتصار الطرفين ولبنان كله؛ فأين ذلك الغطاء السياسي للحرب الدفاعية التي يخوضها حزب الله، اليوم، ضد جماعات الذبح المذهبي والطائفي على مشارف لبنان، وربما، غداً، داخله؟

تحتاج اللحظة الراهنة من الصراعات المتشابكة المريرة، إلى جرأة تاريخية لا تلوذ، أقلّه، بالصمت، وتفتح الباب أمام الشراكة النِدية في مستقبل المشرق.

14 حزيران 2013

المقاوِم وأزمة الإنقسام المذهبي

أَنْ يضطرّ المقاوم العربيّ الأوّل، حسن نصرالله، إلى الكلام بصفته «شيعياً»؛ فمعنى ذلك أن أزمة الانقسام المذهبي الإسلامي قد بلغت ذروتها، وأنها أخذت تضرب حوافّ ـ وربما قلب ـ جمهور حزب الله بالذات، ما استوجب خطاباً من نوع خاص، خطاباً دوّاراً يذهب إلى الجزئيّ كي يعود به، ومعه، إلى الكليّ. والكلّي، في يوم القدس بالذات، هو المسؤولية «الشيعية» إزاء المشترَك العربي والإسلامي، أي فلسطين.

يُعاقَب «الشيعة»، على امتداد العالم، كونهم مندرجين في قضية حرية فلسطين. بالنسبة إلينا، فنحن لا نتوقف، كثيراً، عند الدوافع الدينية كمحرك سياسي؛ لإيران، كقوة إقليمية صاعدة تبحث عن استثمار تقدمها المتنوّع الأشكال في قيادة الإقليم، مصلحة استراتيجية في مجابهة إسرائيل، أما حزب الله، فمشروع تحرير الأراضي اللبنانية المحتلة والذود عن الجنوب، هو، أيضاً، بالإضافة إلى كونه تعبيراً عن حس وطني سليم، يتطابق مع مصلحة التمركز الذاتي لشيعة لبنان في النظام اللبناني والإقليمي. ولولا

النهج الجدي في مقاومة إسرائيل، بغض النظر عن دوافعه، ما كانا (إيران وحزب الله) ليواجها كل هذا التحريض والحصار والعداء، لولا موقفهما الجذري من القضية، وإصرارهما على المواجهة الاستراتيجية مع العدوّ الإسرائيلي، لكانت لدى إيران تحديدا أفضل الفرص للتفاهم مع الغرب. وهو ما كان سيكون على حساب استقلالها. وقد كانت إيران الشاه - وهي شيعية - إنما حليفة الامبريالية والصهيونية ـ محطّ ولاء حكّام الخليج. ولا تزال صورة هؤلاء التي رسمها الشاعر العراقي، مظفر النواب، وهم يخرّون سجّداً للشاهنشاه، ماثلةً في الذاكرة الأدبية للعرب. وحين كان شيعة لبنان، قبل المقاومة، جمهوراً للإقطاعيين التابعين للنظام الكمبرادوري اللبناني التابع للغرب، كانت النظرة إليهم تنوس بين جشع الاستغلال والاضطهاد والإشفاق والإلحاق، ولكن ليس العداء المذهبي.

لكن، ليس كل الشيعة، بالطبع، معادين للإمبريالية والصهيونية، وليس كل الشيعة ممن يمنحون فلسطين الأولوية. ولربما آن الأوان للتأكيد على المعايير السياسية، قبل المذهبية والدينية والعقائدية، في البحث عن وحدة الكفاح ضد العدو الأميركي ـ الإسرائيلي.

العداء الحالي للشيعة له تفسيرات أخرى، لا يمكن تجاهلها، وتتصل، خصوصاً، بآليات إنتاج المتزمتين والتكفيريين والإرهابيين. ولهؤلاء، وظائف تتجاوز ضرب الشيعة ـ والعلويين

والإسماعيليين والمسيحيين.. الخ - إلى إحكام السيطرة على الأغلبية السنية نفسها، ولجمها في إطار الهيمنة الفكرية والسياسية للأنظمة الخليجية. ومن بينها تحديداً، السعودية وقطر، اللتان تدينان بالوهابية. وعداء الوهابيين الإرهابي للشيعة أصيل وقديم؛ فحتى أواسط العشرينيات، كان الغزاة الوهابيون يهاجمون العشائر العراقية الشيعية بانتظام، ويعتدون على مقاماتها المقدسة، إنما اللافت أنهم كانوا يهاجمون، في الوقت نفسه، العشائر الأردنية السنية، وبالعنف نفسه؛ فالوهابية، نشأةً وتاريخاً، مذهب تكفيري معاد للشيعة والسنّة، معاً. والوهابية ماكينة اجتماعية سياسية ثقافية، تنتج الفكر الإرهابي والإرهابيين، بلا توقّف.

بين الوهابية والإخوانية والسلفية المقاتلة والجماعات الإسلامية، صلات عَقدية، ظاهرة وباطنة، انعقدت وتبلورت وتصلبت في نهج الإخونجي، سيد قطب. وهو مَن وضع المسلمين جميعاً، ممن هم خارج الدعوة، في خانة «جاهلية القرن العشرين»؛ لقد كفّر السنّةَ المخالفين، فما بالك بالشيعة؟

تؤكد تقديرات بحثية أمنية ميدانية أن جاذبية العداء للشيعة، في تجنيد الإرهابيين، تزيد بعشرة أضعاف عن الجاذبيات الأخرى. وهو ما يجعل التحريض المذهبي أفضل الوسائل وأسرعها في تكوين الجيش الإرهابي الذي حلّ، اليوم، محل الجيوش الامبريالية النظامية في خوض معاركها لضرب الأنظمة القومية، كما هي الحال في سوريا، ومنع استعادة وحدة المجتمع والدولة، كما

هي الحال في العراق، وكسر الظهر الوطني للمقاومة، كما هي الحال في لبنان.

بصفتي علمانياً ويسارياً، فإني أمتلك ذلك الحياد اللازم الذي يجعلني أرى، بوضوح، المذبحة اليومية التي تطارد الشيعة، فقط لكونهم كذلك، وبغضّ النظر عن ميولهم السياسية، في العراق وسوريا، وكذلك التهديدات في لبنان، وأخيراً الاضطهادات المريعة في السعودية والبحرين. بالإضافة إلى التحريض الخليجي للحرب على إيران.

الميول الشيعية المعادية لإسرائيل - بسبب الثورة الإيرانية من جهة، والمصالح التحررية لشيعة جنوب لبنان وبقاعه، من جهة أخرى - هي أحد عوامل الحملة على الشيعة، لكن هناك عوامل أخرى، منها نهوض أولئك المضطهدين تاريخياً، وتنامي الحضور السياسي الشيعي، وكذلك المصادفة الجيولوجية التي وضعت معظم الثروات النفطية في المناطق الشيعية بالذات. لكن يظل أن العامل الأهم، يكمن في الفشل الثقافي التاريخي في مهمة تحديث الإسلام، ما أبقى على جذوة العداوة المذهبية قابلة للاشتعال كل هذه القرون.

المدخل الفلسطيني لردم الانشقاق، هو الاقتراح الرئيسي لحزب الله. وقد أعاد نصرالله، التأكيد عليه، هذه المرة، من موقع «شيعي»، آملا في رص صفوف جمهوره المكلوم بالعداء والذبح والتهديدات، وراء وحدة المسلمين ووحدة المقاومة. وهو خطاب

نبيل فعلاً، لكن فرصه الواقعية محدودة؛ فـ «حماس» التي يطالب نصرالله، اليساريين والقوميين، بالكف عنها، لا تزال ترسل «المجاهدين» إلى سوريا، وتخسر المزيد من جماهير، السُنّة المتنورين والمسيحيين والعلمانيين والقوميين واليساريين، بينما يربح حزب الله هذه الجماهير، ليس لأنه «شيعي»، بل لكونه يساهم، ببسالة، في صدّ الهجمة التكفيرية الإرهابية التي تهدد كل العرب؛ إنما يمكننا أن نلاحظ أن استرضاء «حماس» و«الإخوان»، ما يزال أهم، لدى حزب الله، من توطيد التحالف مع تلك الجماهير.

5 آب 2013

المقاوِم والتباسات حزبه

إقدام وفد «المجموعة اللبنانية للإعلام ـ تلفزيون المنار» على الاعتذار عن تغطية الحراك الشعبي البحريني السلمي، من أجل تلافي قرار عربي بوقف بث القناة ـ كما حصل بالنسبة للتلفزيونات السورية ـ ليس مجرد «سقطة» أو «تصرف خاص بأعضاء الوفد». فالوصف الأول أخلاقي، فكأن مندوبي «المنار» تخلوا و«خانوا». وهذا لا يفيد بشيء في تحليل جدي، كما أن تبرير الحزب ليس مقنعاً؛ فوفد «المنار» حزبي أو خاضع للمستويات الحزبية. دعونا، إذاً، نعالج الحدث باكتشاف جذوره:

أولاً، لعل التماسك الفكري السياسي المعروف عن حزب الله، قبل عام 2011، قد تعرّض للكثير من التصدعات بسبب التطورات النوعية الكبيرة التي شهدها المشرق والعالم العربي. فقد انتقل الحزب من الاطمئنان الصوفي إلى واحدية فكرية ـ سياسية، تتمحور حول مقاومة إسرائيل، إلى الدخول في شبكة تناقضات فرضها الواقع، واندرج فيها الحزب ميدانياً، وحوّلته إلى قوة إقليمية متعددة الجبهات والمداخلات. وهو ما لم يحظ سوى بالمعالجات

المتابعة في خطابات حسن نصر الله، من دون أن ينخرط الحزب في مراجعة فكرية ـ سياسية، يبدو أنها مؤجلة حتى إشعار آخر، ربما بسبب صعوبتها المزدوجة. فهي، من جهة، تحتاج إلى خيال سياسي وابداع فكري وورشات نقاش صريحة وشجاعة، إضافة إلى أنها تطرح، من جهة أخرى، ضرورة إعادة تنظيم وعي أعضاء الحزب وجمهوره.

1 ـ حزب الله، كما هو معروف، حزب إسلامي، وجد نفسه يقاتل في صفوف نظام قومي علماني هو النظام السوري، ضد قوى إسلامية. صحيح أن التركيز، هنا، هو على الجماعات التكفيرية، ولكن المواجهة، في سوريا، تشمل، أيضاً، الإخوان المسلمين وكل تيار إسلامي معارض للدولة العلمانية. وفي تسويغ ذلك، برز مبرران، أحدهما سياسي مما تلح عليه خطابات السيد حسن نصرالله، فتوضح ـ وهذا صحيح ـ أن الدفاع عن النظام السوري، هو، واقعياً وميدانياً واستراتيجياً، دفاع عن المقاومة ذاتها، وعن سلاحها وخطها؛ والثاني شعبي لا محيد عنه، ينظر بعين الرضا والحماسة لمشاركة الحزب في معركة سوريا، من موقع مذهبي ضمني.

2 ـ وعلى خلفية الصراع في سوريا بالذات، دخل حزب الله في تناقض في ما يتصل بالموقف من «حماس»؛ ففي الأساس، كان من شأن الأيديولوجية الواحدية الواقفة خلف أولوية البندقية ضد إسرائيل، وبمعزل عن كل الأبعاد السياسية، أن تحافظ على

العلاقات بين حزب الله وحماس. وقد مشى الحزب وراء محاولة الفصل تلك، وفشل أو تعثّر، سواء بسبب الرفض السوري أو بسبب ضغوط حلفاء الحزب الجدد من قوميين ويساريين أو بسبب ضغوط جمهور الحزب نفسه، ذلك الذي رأى في السلوك الحمساوي خيانة للمقاومة.

3 ـ وامتدّ الارتباك، بطبيعة الحال، إلى الشأن المصري؛ فمنطلقات حزب الله، تجعله يميل إلى الإخوان والإسلاميين، تحت مقولة المرشد الخامنئي، عن «الصحوة الإسلامية»، لكن، في المقابل، يجد الحزب نفسه مضطراً إلى النظر إلى الجيش المصري ونظامه، كحليف جديد للنظام السوري، لا يمكن الاستخفاف بحضوره ووزنه النوعي.

4 ـ وإذا كان السقوط المدوّي للإسلام السياسي السنّي في العالم العربي، مريحاً لحزب الله في الميدان السوري، فهو يطرح الأسئلة حول مستقبل الإسلام السياسي الشيعي العربي أيضاً، في لبنان نفسه، ولكن أشدّ هولاً في العراق، حيث أصبح واضحاً أن إنهاء الانشقاق والفلتان الأمني وعودة الدولة ودورها الخدمي والتنموي والإقليمي، هو رهن بالعودة إلى علمانية الدولة.

ثانياً، التداخل، أو قل التماهي، بين حزب الله والجمهورية الإسلامية في إيران، كان سالكاً، بلا تناقضات جوهرية ـ اللهم الا في مقاربة الشأن العراقي ـ لكن اليوم، بعدما بدأت مسيرة التفاهمات الإيرانية ـ الأميركية، حدث افتراق موضوعي في مضمون وشكل

مقاربة حزب الله للموقف من السعودية والخليج، سواء حول سوريا ولبنان والبحرين - وهي مقاربة المجابهة الصريحة كما رسم ملامحها خطاب نصر الله في اتهام السعودية بالإرهاب - وبين مقاربة الدولة الإيرانية التي تنزع إلى توسيع نطاق المصالحات البراغماتية (وهي تتضمن، بالطبع، تقديم تنازلات) مع الخلايجة، بل والسعي الدؤوب للتفاهم مع السعودية. وهو ما يحقق المصالح المشروعة للدولة الإيرانية.

كل أشكال التناقضات السابقة - وسواها كثير - أثّرت، وتؤثّر على أعضاء حزب الله - ربما من دون مقاتليه - وخصوصاً كوادره الإدارية والفنية ومؤسساته ووسائل إعلامه، وتثير عدة نزعات، كالاضطراب والبراغماتية والشعبوية والميركنتيلية.. الخ، وهو ما يطرح على الحزب، من دون تأخير، مهمة القيام بخطوة تنظيم عاجلة، تعيد تعريف أيديولوجيا الحزب واستراتيجيته وتؤكد استقلاليته الفكرية والسياسية ووسائله، وذلك في غرفة نقاش لا تستبعد الحلفاء والأصدقاء.

11 كانون الأول 2013

المقاوِم في مواجهة السيناريو الأسوأ

خلال استقباله رئيس الوزراء العراقي السابق، نوري المالكي، كشف الأمين العام لحزب الله، السيد حسن نصرالله، عن مخطط غربي - إسرائيلي بالغ الخطورة، يتمحور على اقتطاع مناطق من سورية والعراق، وضمّها إلى الأردن في دولة تكون هي مآل الحلم الصهيوني بتصفية القضية الفلسطينية، نهائياً، في صيغة جديدة للوطن البديل. هل كان المخطط، كذلك، منذ بداية الأحداث في 2011؟ الأرجح أن هذا المخطط وليد التطورات، وهي (1) فشل العدوان الغربي الرجعي العثماني في اسقاط الدولتين السورية والعراقية، (2) الانقسام الطائفي الحادّ الذي يفتح الباب لإقامة دولة في الهلال الخصيب، تستوعب القسم الأكبر من العصبية السنية في المنطقة، وتدمجها في كيان طائفي تعلو فيه الهوية الطائفية على الهويات الوطنية الأساسية، ما يتيح ضرب عصافير عدة بحجر واحد؛

فأولاً، يتم تقسيم العراق العربي وعزل جنوبه ووسطه عن غربه وشماله، وثانياً، يتم اقتطاع مساحات من الدولة السورية على أسس

طائفية وإتنية، وتحويل موارد هاتين المنطقتين إلى دعم نشوء دولة ذات إمكانيات، وثالثاً، تتحقق الأرضية الإقليمية الواقعية لتحوّل إسرائيل إلى دولة يهودية، بينما يتم التخلّص، شيئاً فشيئاً من فلسطينيي الـ 48 بالقانون والتعويضات، ومن فلسطينيي الـ 67، بتهجيرهم من الضفة الغربية إلى شرقيّ النهر ليندمجوا في الدولة الجديدة.

سوف يتضاعف «الأردن الكبير» إلى أكثر من الضعفين من حيث المساحة، ويشتمل على أكثر من 25 مليون نسمة، بمن فيهم مهاجرون فلسطينيون وعراقيون وسوريون موجودون فعلاً في الأردن الآن.

المخطط الجديد للوطن البديل من خلال توسيع مساحته ومضاعفة عدد سكانه أكثر من ثلاث مرات، يسعى الى استيعاب عقبات تقليدية عرقلت تطبيق مشروع الوطن البديل سابقاً، وأهم هذه العقبات: أولاً، المقاومة الأردنية المتوقع أن تتراجع قوتها وحضورها السياسي ونفوذها في الدولة الأردنية الحالية تراجعاً لا يعود يسمح لها بالفعل السياسي؛ ثانياً، تجاوز الهويات الوطنية التي تعرقل الاندماج إلى هوية جامعة تضم جميع المكوّنات والهويات، الأردنية والفلسطينية والعراقية والسورية، إلى هوية طائفية، تنظر إلى ذاتها كجزء من تحالف خليجي ـ مصري، يتنافر، ويحدّد ذاته على الأقل، إزاء الكيان الشيعي في العراق والكيان التعددي في ما يبقى من سوريا (علوية، مسيحية، شيعية، اسماعيلية، درزية، سنية

مستنيرة)، ثالثاً، ستغدو هذه الدولة الطائفية المركّبة القائمة على المحاصصة، والمرتبطة بالولايات المتحدة والخليج والمتعاونة، سياسياً وأمنياً واقتصادياً، مع إسرائيل، قوة رجعية كبرى وأداة للإمبريالية الأميركية، وشرطياً إقليمياً. ولن تخشى إسرائيل، على المديين المنظور والمتوسط، من أي أخطار أمنية من قبل الدولة الجديدة؛ أولاً، لأنها ستكون تحت إدارة النظام الهاشمي الموثوق والكفء أمنياً، وثانياً، لأن الهوية الطائفية الجامعة ستصب عداءها نحو المكونات الطائفية الأخرى، كأولوية صراع، تجعل الاصطدام مع إسرائيل في المرتبة الثالثة.

هذا السيناريو قد يبدو خيالياً؛ إنما هو قيد الحسابات الإمبريالية ـ الصهيونية بالفعل؛ ويمكننا أن نلاحظ في هذا السياق ما يلي: أولاً، الدعم الكبير الذي قدمته واشنطن والرياض وعمان لـ «تحالف الثورة العراقية» في غربي وشمالي العراق. وهو تحالف ضم قوى عشائرية وتنظيمات إسلامية وبعثية و«داعش»، ومُنح كل أشكال الدعم للاستيلاء على الموصل والتحكم في غربي العراق، مقدمةً لانفصاله. لكن ما خربط هذا السياق هو انفراد «داعش» بالسلطة وضربها للقوى الأخرى، وسعيها، بعدما استقلّت مالياً، إلى إعلان الخلافة، والاصطدام بسادتها السابقين؛ ثانياً، برنامج تحالف واشنطن المديد الهادف إلى ضبط «داعش»، وليس هزيمتها؛ ثالثاً، تحضير حرس محلي في المحافظات الغربية والشمالية خارج سلطة الدولة العراقية، والمباشرة في تدريب قوات مطيعة للحلول محل «داعش» في المناطق التي يسيطر عليها

التنظيم؛ رابعاً، إقدام السلطات الأردنية، بصورة غير مفهومة من وجهة نظر المصالح الأردنية، على دعم انقلاب «الدواعش» في الموصل، وتسريع عمليات التدخل في جنوبي سوريا؛ خامساً، الجنوح الإسرائيلي إلى طرح مشروع قانون يهودية الدولة، واقتراح ليبرمان تهجير عرب الـ 48، والاعتداءات غير المسبوقة على المسجد الأقصى، بكل ما يحمله، رمزياً وسياسياً، بالنسبة للأردن وفلسطين. فمن الواضح أن السياسة الإسرائيلية تتجه نحو التراجع عن معاهدتي أوسلو ووادي عربة. وبالنسبة إليها: لا دولة في الضفة الممزّقة بالاستيطان والطرق الالتفافية والحواجز والحصار، ولا دولة واحدة ديموقراطية على كل فلسطين تنسف إيديولوجية الصهيونية.

إن العدوانية والأطماع التركية إزاء سوريا، التحالف الخليجي ـ الاسرائيلي، التمويل المستمر للإرهاب ضد الدولتين السورية والعراقية، والانزياح الجماهيري ـ بما في ذلك الفلسطيني ـ نحو غلوّ الهوية الطائفية على الهوية الوطنية؛ كل هذه، وسواها، تفتح الباب أمام ألوان شتى من الخيالات نصف الواقعية، وستظل كذلك، طالما رجال الجيش السوري وحلفاؤه يقاتلون.

3 تشرين الثاني 2014

المقاومِ.. في ركاب المشرقية

لم يذكر «السيد»، انطون سعاده بالاسم. لكنني، وأنا أصغي إلى خطاب نصرالله في ذكرى القادة الشهداء، فاجأتني ذكرى الزعيم السوري القومي العظيم.

نصر الله أعرب عن حساسية مشرقية واضحة بإشارته الصريحة إلى أن التاريخ يُصنَع، اليوم، في البلدان المشرقية (سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن)، يراها الأمين العام لحزب الله، في وعيه الاستراتيجي، إقليماً واحداً، هو ميدان الصراع مع العدوين اللدودين لنهضة هذا الإقليم: الكيان الصهيوني والقوى الطائفية التكفيرية الإرهابية.

وسيكون هناك، من بعد، نقاش طويل ومحتدم حول اتجاهات النهضة المشرقية في التنظيم السياسي (الكونفدرالية) وفي التنظيم الاقتصادي (التنمية تحت سيطرة الدولة) وفي التنظيم الاجتماعي (الديموقراطية الاجتماعية، العدالة والمساواة)؛ لكننا اليوم أمام

مهمة رئيسية هي المقاومة؛ فلا مستقبل لبلادنا إذا لم نتمكن من هزيمة التحالف الصهيو ـ تكفيري، تتطلب، بالطبع، التوافق على علمانية محلية ـ لا مستوردة ـ صاغها «السيد»، ببساطة، حين قال: «لا يوجد في الإسلام ما يخالف الفطرة الإنسانية»؛ كل ما ليس انسانياً، كل ما يمس حقوق الانسان وكرامته وحريته، ليس اسلامياً، ولا مسيحياً بالطبع.

المشرقية تتولّد في الوعي المقاوم، تلقائياً، من خلال اقتحام حزب الله للصراعات الواقعية في المشرق؛ وخصوصاً في مثلث المجابهة السوري ـ اللبناني ـ الفلسطيني ـ الأردني في الجولان، حيث يتماهى الإرهابان الصهيوني والتكفيري معاً، وفي العراق، حيث تخوض بغداد معركة الحفاظ على وحدة بلاد ما بين النهرين.

تطرّق نصرالله إلى اليمن والبحرين؛ أهمية المقاومة المسلحة للثورة اليمنية والسلمية للثورة البحرينية، تتصل بالصراع الدائر في المشرق الذي يكنّ له آل سعود كل مشاعر الكراهية السياسية والثقافية والحضارية، وأنفقوا، وما زالوا ينفقون، المليارات لتدميره؛ اليمن والبحرين طرفا الكمّاشة التي ستطبق على قاعدة الشر السعودية، وتمنعها من تصدير البترودولار والوهابية والإرهاب إلى مشرقنا المتحضّر الدامي، إنما الذي «يصنع تاريخ العالم.»

وهذه مقاربة استراتيجية صحيحة تماماً. فعلى نتائج الصراع في المشرق، تتراجع أو تتقدم امكانيات التحالف الروسي ـ الصيني ـ الإيراني، المؤهّل لإعادة تركيب هيكل العلاقات الدولية، وإعادة

ترتيب موازين القوى في العالم المعاصر. ان انتصار قوى المقاومة في المشرق في مواجهة الصهيو ـ تكفيرية، سيدفع التحالف الناشئ المذكور، خطوات كبرى إلى الأمام: سياسياً سيتألّف الوزن النوعي الكافي لفرض الشرعية الدولية كإطار وحيد للعلاقة بين الدول والشعوب؛ واقتصادياً، سينشأ نظام اقتصادي دولي متحرر من الدولار، ومن تأثير نظام العقوبات الهمجي، وقادر على دفع محركات التنمية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية؛ ودفاعياً، ستتعاضد قدرات عسكرية تجعل من الحروب الإمبريالية، مغامرة كونية.

يدرك حزب الله، بوضوح، أن انتشاره من لبنان إلى سوريا والعراق، ليس مجرّد مشاركة للحلفاء في معاركهم الداخلية، وإنما هو انغماسٌ ذاتي في هذه المعارك، يحقق شرطين، أولهما، توسيع نطاق وقوى المقاومة في مواجهة الكيان الصهيوني، وتحرير هذه المقاومة من قيود الحدود اللبنانية، وثانيهما، تشبيك المشرق في هذا السياق بالذات. بذلك، لم يعد حزب الله لبنانياً، وإنما تحوّل، واقعياً ـ وليس، بالضرورة، فكرياً ـ إلى حزب للمشرق كله.

هذه الحركة الصاعدة في تاريخ بلادنا، هي التي تجعل من الاتفاق الغربي ـ الإيراني حول الملف النووي، على أهميته، هامشياً، وتدفع الإيرانيين والروس إلى التحالف الاستراتيجي، وتالياً، الشروع في تغيير العالم. وهذا المدى الذي افتتحه حزب الله، في الممارسة الكفاحية، هو الذي دفع الإيرانيين، ليس،

فقط، إلى الحضور في الجولان، وإنما إلى الإعلان السياسي عن هذا الحضور المغطّى بالرضا الروسي، ما يصغّر مفاعيل أي اتفاق مع غرب نسجّل أنه ابتلع، مرغماً، وجود إيران على حدود فلسطين المحتلة.

أحد منظّري «الثورة» السورية، يكتب في صحيفة «العربي الجديد» الداعشية ـ الليبرالية، أن تلك «الثورة» تقف أمام استحقاق الاتفاق الإيراني ـ الغربي حول النووي؛ فإذا تم، كان عليها أن تتعاطى مع الواقع الجديد الصعب، وإذا فشل الاتفاق ذاك، انفتحت أمامها فرصة استجلاب العدوان الغربي ضد سوريا.

يكمن الخطل، هنا، في نهج التفكير التبعي الذي يبدده نصرالله بفكره الاستقلالي: نحن مَن يصنع التاريخ! نحن مَن يمهّد الأرض، لتفعيل نهج دون آخر في إيران، وفي روسيا، ونقود التغيير العالمي... الذي يعود، في حركة الجدل الاستراتيجي، ليصنع مصير بلادنا؛ فلا مستقبل للبنان ـ كما الأردن وفلسطين ـ في «النأي بالنفس»، وإنما في الاشتباك الذي لا مهرب منه في الصراعات الكبرى في سوريا والعراق والإقليم: تعالوا إلى الميدان، قاتلوا الإرهاب والصهيونية، واحصلوا على مكانكم في مستقبل المشرق.

18 شباط 2015

المقاوِم يطرح سؤال العروبة

واجه خطاب الأمين العام، حسن نصر الله، حول اليمن، هجمة واسعة. الجديد فيها أنها شملت، هذه المرة، نقّاداً جدداً، ليس فقط من الصفوف المعتادة من السلفيين والطائفيين والليبراليين المتسعودين، بل، أيضاً، من صفوف «يساريين» و«قوميين» و«ليبراليين وطنيين» وعلمانيين...

من الواضح، إذاً، أننا بإزاء حملة، نجتهد، في تفسيرها، كالتالي: أولاً، تزايد كثافة نشاط الشبكات السعودية ـ القطرية ـ الإخوانية، منذ تصاعد نجاحات الثورة اليمنية، باتجاه دفع المزيد من الخلايا السياسية والإعلامية النائمة للهجوم على نصرالله، من زوايا غير مسبوقة، «قومية» و«علمانية»؛ ثانياً، إغلاق المنابر أمام الأصوات المضادة لتلك الحملة، ومنع أي نقاش بصددها؛ ثالثاً، اتساع نطاق المتوترين مذهبياً إزاء تنامي الحضور الشيعي في آسيا العربية. العاملان، الأول والثاني، مصطنعان مموّلان، ولا قيمة، بالتالي، لهما. لكن العامل الثالث مثير للقلق فعلا؛ فالهوّة السنية ـ

الشيعية تتعمّق، أكثر فأكثر، بل ويكاد الفايروس المذهبي أن يضرب أقساماً من الأوساط المتنورة والمدنية والعلمانية.

يعرف المثقف العربي الكثير عن مصر ولبنان. وهما بلدان يهيمنان على المعرفة السياسية المتداولة والتغطيات الإعلامية. بالمقابل، فإن بلدين بالغيّ الأهمية، مثل سوريا والعراق، ما يزالان مجهولين، من حيث الوعي بتركيبتهما الاجتماعية والثقافية والجهوية والدينية والمذهبية وأنماط الأيديولوجيا المحلية الخ؛ فماذا إذا انتقلنا إلى بلدان واقعها العياني خارج التغطية، كالسعودية والبحرين واليمن؟

على خلفية الجهل والتجاهل، هذه، يبدو للرأي العام العربي أن تضافر ظواهر متزامنة (مثل تحوّل حزب الله إلى قوة إقليمية والصمود السوري ونهوض الحركة الشعبية العراقية والحركة الديموقراطية البحرينية والثورة اليمنية والحياد العُماني)، وكأنها صدمة مدوّخة إزاء «مؤامرة» شيعية، نسجها الإيرانيون، بل «الفرس المجوس»!

الأغلبية، المدّعية العروبة، مطبقة الجهل حيال البنى الاجتماعية ـ السياسية ـ الثقافية للبلدان العربية؛ لا تعرف شيئاً جدياً أو ملموساً حول تاريخيّة الحضور المسيحي العربي، إلا أنها تعرف أقلّ عن التعددية المذهبية، شديدة التعقيد، خارج المذهب السني، بل قل المذهب السني ـ الوهابي ـ الإخواني المسيطر. هكذا، يصبح العلويون والاسماعيليون والزيديون والاباضيون الخ،

«شيعةً»، ككتلة صمّاء لا كفضاء تعددي. ومن المفروغ منه، والحالة هذه، أن تكون المعرفة بالشيعة (الاثني عشرية)، بالغة السطحية والنمطية، لا تدرك ما في التشيّع من مدارس واتجاهات واجتهادات، وتُلحق جميع الشيعة العرب بالتشيّع الإيراني. وتكون خلاصة هذا الوعي الزائف كالتالي: كل مَن ليس وهّابيا، ليس عربيا، بل أداة «فارسية».

حاول نصرالله، في خطابه الأخير، تفكيك الصورة النمطية المعمّمة إزاء العلاقات التي تربط قوى عربية بالإيرانيين. مقاربته ـ الصحيحة تماماً ـ تقول إن الحكام العرب الذين يحتقرون الشعوب، عاجزون، بالضرورة، عن إدراك وجود الإرادات المحلية الذاتية للقوى الشعبية، مثلما هم عاجزون عن تصوّر علاقات تحالف نديّة مع القوى الإقليمية والدولية. يستعيدون تجربتهم الخاصة في التبعية المذلّة لشاه إيران، وخضوعهم للهيمنة الأميركية، ولا يمكنهم تصوّر نمط آخر من العلاقات سوى التبعية والخضوع.

مَن يملك أبسط معرفة ببنية النظام والدولة في سوريا، سيسخر، حتماً، من الأقوال السخيفة حول تبعية سورية للإيرانيين. العقلية السياسية السورية شديدة الحساسية إزاء السيادة واستقلالية اتخاذ القرار، حتى في أسوأ الأوقات. لقد قُيّض لي الاطلاع على سجالات سورية ـ إيرانية، أدهشتني حقاً. ففي عزّ الحرب، يناقش السوريون حول النقطة والفاصلة! وإذا كانت دمشق تقارن نفسها بعاصمة ما، فهي تضع رأسها برأس موسكو. ولهذه النقطة بالذات،

سيجد أي عربي حر الجواب على سؤال: لماذا يتوجب الوقوف مع الدولة السورية حتى النهاية؟ في الواقع، لا مثيل للاستقلال السوري في صفوف الأنظمة العربية جميعها، بلا استثناء.

حسن نصرالله؟ هل هذه طلّة تابع؟ في طهران، سينمو في داخلك سؤال: أيهما أكثر نفوذاً: طهران في الضاحية أم الضاحية في طهران؟ غير أن العبيد لا يمكنهم أن يتصوّروا وضعية وعقلية ووجدان الأحرار!

في اليمن، لا توجد، بالأساس، حدود مذهبية صمّاء. فالزيديون أقرب إلى التسنّن، والشوافع أقرب إلى التشيّع؛ آل سعود هم الذين أنفقوا الأموال والجهود للفصل بين الفريقين، من خلال نشر المذهب الوهّابي. وكذلك الإخوان المسلمون. هاتان القوّتان السوداوان عبثتا في النسيج الثقافي لليمن الطيب البسيط المفقَر، لإدامة السيطرة على بنيته وقراره ومقدراته؛ لقد ضجر الشعب اليمني من حال التبعية والفقر والفوضى والفساد، وثار؛ سرق الإخوان والخلايجة، ثورته، أربع سنوات، ثم استعادها بوساطة قوة حركة «أنصار الله». هذه الحركة، رغم أنها انطلقت من مظلومية خاصة، فإن ما يُلفتُ النظر، في مسيرتها، أنها يمانية الرؤية والممارسة، ترنو إلى وطن سيد مزدهر، ولا تشتهي وضعاً طائفياً مميزاً؛ فمن يمانية الحركة، أي من خلال تجذّرها الوطني، أنها تنبذ الاستراتيجية المذهبية.

يؤكد نصر الله أن العلاقة بين الحوثيين وإيران، لم تنشأ إلا منذ

وقت قصير جداً؛ ليس هذا فحسب، بل هناك ما هو أكثر؛ لم يترك الحوثيون باباً عربياً إلا وطرقوه، وحتى أنهم، في وقت ما، لجأوا إلى الأردن، طلباً للوساطة؛ فجرى إهمال طلبهم! بينما استجابت عمّان، في المقابل، لمطالب الدعم الأمني للنظام البحريني. وما يحزّ بالنفس، أن المثقفين العرب ما زالوا يتجاهلون أكثر الثورات نقاء وسلمية ووطنية، أعني الثورة الديموقراطية في البحرين، وما زالوا يصمتون على الفظائع التي تُرتَكب بحق المناضلين المعتقلين في سجن جو؛ وحياتهم المهددة جراء شروط الاعتقال الأسوأ في العالم، لكن الأفظع هو فصل المعتقلين على أساس مذهبي! أيُّ حقد مجنون هذا على وحدة الحراك البحريني؟

حتى عام 2003، حين دعم حكّام الخليج، الاحتلال الأميركي لهذا البلد العظيم، لم أكن أتصوّر، جراء معرفتي المباشرة بالمجتمع العراقي، أن العراقيين سيحتربون مذهبياً؛ فالعراقي، مهما كان دينه أو مذهبه أو اتجاهه، يظل عراقياً في نمط تفكيره ووجدانه وحسه الثقافي وميوله ونظرته إلى الكون والحياة؛ فكم أنفقت المخابرات السعودية من الأموال، وكم حشدت من التكفيريين الإرهابيين، لنشر الوهابية الإجرامية في العراق، وتقسيم أعظم مقاومة عرفها العرب في تاريخهم، مذهبياً، وتحويل نيرانها من مجابهة المحتلّ إلى مجابهة الأخ وابن العم؟

ليس نهج الطائفية والإرهاب مجرد نتاج فرعي للثقافة الوهابية والتدخلات الاستخبارية السعودية، بل هما ـ الطائفية والإرهاب ـ

عمودا الوجود السعودي؛ من دونهما لا بقاء للمملكة، ولا للمنظومة الخليجية كلها، منظومة الاحتكار العائلي للثروات الطبيعية والنيوليبرالية وتدوير البترودولار في اقتصاد السوق المعولَم. وهذا هو الأساس في عولمة الإرهاب. ولعل الولايات المتحدة، الآن، أن تكون مترددة بين اتجاهين، أولهما يؤيد الاستمرار في الاعتماد على الأدوات الإرهابية للفاشية الدينية، وثانيهما يميل إلى تفكيك المنظومة الخليجية، وإعادة تركيب الخليج على أسس ليبرالية في سياق التبعية نفسه. كلا الاتجاهين يدعم الحرب السعودية المجنونة على اليمن؛ فإذا آلت الحرب إلى هزيمة الثورة اليمنية وانتشار الفوضى والإرهاب في البلدين، سيكون «خيراً» لواشنطن، ينجم عنه احتلال شامل لمنابع النفط؛ وإذا انتصر اليمن، ستواتي الليبراليين، الفرصة الذهبية، لتفكيك السعودية، وإعادة بناء منظومة خليجية تابعة، ولكن معقلنة. في الحالتين، تكون الرياض دمرت العراق وسوريا ومنعت مصر من الاستقلالية، ثم انتحرت، بينما تواصل الجمهورية الإسلامية في إيران، تقدمها الاقتصادي والعلمي والدفاعي... فأيّكما أكثر إخلاصاً للعروبة: حزب الله الذي يقاتل دفاعاً عن قوة ومستقبل العرب في سوريا والعراق واليمن، أم أنتم الذين تحملون معاول الهدم الطائفي والمذهبي والإرهابي لديار العرب؟ وهل هنالك حُرقة على العروبة أعظم من صرخة نصرالله في وجوهكم: «يا تنابل»!

31 آذار 2015

المقاومِ.. في مواجهة «المثقفين» الوهّابيين

يبثّ آل سعود، اليوم، على موجة جديدة. وسّع البترودولار دائرة استقطابه لتشمل «علمانيين» و«شيوعيين»، يدعمون الحرب على فقراء اليمن، لأن الحوثيين سينقلون إليها نظام الولي الفقيه! وكأن آل سعود هم ورثة جان جاك رسو وكارل ماركس، وليسوا ورثة ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب!

«مثقفون تقدميون» يأخذون النقاش، من ميدان الواقع، واقع العدوان السعودي ـ الأميركي على الشعب اليمني، إلى ميدان العقائد والنظريات؛ هذا الالتفاف يقع في باب خدمة العدوان، والتغطية على مجازر المعتدين. إنها مخاتلة، بل إنها ضرب صفيق من النذالة أن نناقش ما إذا كان الأطفال والشيوخ، النساء والرجال، الذين تقصفهم طائرات العدوان، علمانيين أم لا؟

«مثقفون تقدميون»، أكثرهم «إنصافاً» أولئك الذين يعتبرون أن المعارك الحالية في آسيا العربية، هي بين معسكرين، كلاهما رجعي وديني؛ هذه المعارك لا تعنينا: لا معنى للوقوف، في سوريا، مع الاستبداد ضد السلفية الإرهابية، أو لدعم «الحشد الشعبي» التابع

للمرجعية ضد «داعش»؛ فكلاهما سواء! أما حرب اليمن، فهي تحتدم بين السعودية وإيران، بين التحالف الإخواني ـ الإرهابي وبين الحوثيين. وكلاهما سلفية ورجعية!

الجبهة المستجدة للهجوم على الأمين العام، حسن نصرالله، الآن، تتركّز على إعلانه أنه يؤمن بأن الإمام علي الخامنئي هو ولي المسلمين! ليس مهماً الإطار التحليلي العياني الذي قدمه في خطابه المهم حول العدوان السعودي ـ الأميركي على اليمن، وليس مهماً ما قدمه من معلومات ومعطيات ومواقف. كلا؛ فالمهم هو إيمانه واعتقاده! إنها المخاتلة نفسها، ذلك التكتيك الذي يقوم على نقل السجال من سياق العملية التاريخية الجارية فعلاً، أي من سياق الصراع الاجتماعي السياسي الاستراتيجي القائم، إلى سياق المعتقدات.

نصر الله سيّد، وعمامته وعقيدته ظاهرتان للعيان. وهذا شأن خاصٌ به وبحزبه؛ فالمهم أنه لا يطالب مواطنيه وأبناء أمته باتباع دينه وإيمانه ومذهبه، لا بالدعوة ولا بالقوة. في خطابه السياسي، كما في ممارساته العملية، ينطلق نصرالله ـ وحزبه ـ من إقرار علماني صريح بالتعددية الدينية والمذهبية والفكرية. لا يريد إرغام المسيحيين على دفع الجزية، بل تسيل دماء أبنائه في الدفاع عنهم، وعن كنائسهم وحريتهم الدينية، ولا يريد «أسلمة» الدروز، أو تشييع السنّة الخ، يعترف بالمكونات، ويحترمها، أحياناً إلى الحد الذي يضرّ بالمقاومة وحضورها وهيبتها؛ لكن حساسية نصرالله

وحزبه، العلمانية بالذات، تفرض عليه، هنا وهناك، مواقف غير منسجمة، منها مثلاً تمسكه بالتعاون مع «حماس»، رغم ما أظهرته من عداء مذهبي وسياسي وعملي لـ «حلفائها» السابقين في محور المقاومة.

العلمانية ليست الإلحاد، ولا تتطلب التخلي عن التديّن، ولا هي كأس فودكا، ولا ارتداء البكيني. العلمانية هي فصل الدين عن السياسة والأهداف السياسية؛ ليس من زاوية الإيمان الذاتي على مستوى الفرد أو التنظيم، وإنما من زاوية الاعتراف بالتعددية الدينية والمذهبية والثقافية، في إطار البنية الاجتماعية العيانية الواقعية، وليس في إطار نقاش نظري مشتق من تاريخ المجتمعات الغربية.

النظام السوري استبدادي؟ نعم. ولكنه علماني بأقصى ما تسمح به البنية السورية الواقعية من ممارسة العلمانية. وبينما يقاتل حزب الله إلى جانب هذا النظام العلماني، رأينا، ونرى، «علمانيين» كثراً يصطفّون إلى جانب التكفيريين الإرهابيين، ويزيّنون بشاعتهم الإجرامية، بالحديث السمج عنهم كـ «ثوار» و«معارضين».

على الموجة نفسها، يعيب علينا رفاق «شيوعيون» بأننا تحولنا، أي قوى اليسار المشرقي، إلى شيوعيين ـ شيعة! أحدهم كتب: لم يبق سوى أن تهتفوا: يا حسين! ولكن، ما هي الشيوعية، أيها الرفاق، سوى الانحياز غير المشروط للفقراء والمضطَهدين والمظلومين؟ ما الشيوعية سوى الانخراط، في كل مكان وفي كل

متاح، لمحاربة الإمبريالية؟ هل الشيوعية هي المساواة بين طائرات آل سعود ودماء الأطفال اليمنيين؟ وهل الشيوعية هي الانكفاء عن الصراعات الواقعية، لأن الفريق المقاتل ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية النفطية، ليس على المقاس النظري؟ اقرأوا ماركس وانجلز ولينين، لكي تكتشفوا أن الشيوعي هو الذي ينخرط في الصراع الواقعي في ظروف واقعية ملموسة، وليس ذلك الذي يخرج من دائرة الصراع لأنه ملتبس عقائدياً، أو حتى يصطف مع الإمبرياليين والإرهابيين، لأن القوى التي تواجههم ليست يسارية!

روسيا لم تعد شيوعية، ولكنها تقاتل من أجل عالم متعدد الأقطاب؛ ألا يتيح ذلك، للشعوب حرية اختيار طريقها للتقدم الاجتماعي والازدهار المادي والروحي؟ روسيا عند بعضكم «إمبريالية» شرقية تصارع «شقيقتها» الغربية؛ فعلينا، إذاً، أن ننضم إلى «القاعدة» ومشتقاتها لمحاربة الامبرياليتين! وإيران، عند بعضكم، مشروع فارسي مجوسي معاد للعرب! والصراع كله، عند بعضكم، لا يعني الشيوعي العربي، لأنه صراع مذهبي بين سلفيتين! أنتم، إذاً، تحكمون على أنفسكم بالتهميش، أو تأذنون لأنفسكم بالاصطفاف الفعلي في حلف آل سعود!

1 نيسان 2015

المقاوِم يستعيد جمال عبد الناصر

منذ ستينيات جمال عبدالناصر، لم تدوِّ صرخة الحقيقة، في الفضاء العربي، مثلما دوّت، أمس، في مهرجان التضامن مع الشعب اليمني في بيروت. حسمها السيّد، وحدّد، بدقة ووضوح، المهمة الرئيسية لحركة التحرر الوطني العربية (المهمة الغائبة والمغيّبة منذ هزيمة حزيران 1967، وبسبب تداعياتها)، والمتمثلة في المواجهة مع النظام السعودي وهزيمته، كشرط لازم لهزيمة المشروع الصهيوني، والتبعية السياسية، والتخلف الثقافي، والتأخر الاقتصادي والاجتماعي في البلدان العربية، ولاستئصال الطائفية والمذهبية والتكفير والإرهاب في العالم العربي والإسلامي.

ظهرت الوهّابية ـ السعودية، بالأساس، كتنظيم صحراوي إرهابي في نجد، مستندةً إلى نسخة دينية تقطع مع كل تراث الإسلام الحضاري، وتلغي كل أشكال التعددية المذهبية والدينية والثقافية التي صاغتها المجتمعات العربية والإسلامية، طوال قرون من الجهد الإنساني، لتفرض منهجاً مستنبطاً من الإسرائيليات، وتحل إلهاً مستعاراً من «يهوه»، إله الجنود والموت، محل الله

الرحمن الرحيم. عقلية الكراهية للمدنية والحقد على البشرية، اندمجت مع عقلية الغزو والقتل والسبي، لتؤسس «دولة» سوداء القلب والعقل والضمير، رعتها الامبرياليتان، البريطانية والأميركية؛ فمكّنتاها من السيطرة، بالعنف الدموي الإجرامي، على المناطق الأكثر تحضّراً في الجزيرة العربية؛ المحافظات الشرقية، والحجاز، والمحافظات اليمنية (نجران وجيزان وعسير). والمفارقة التي، عادةً ما يتناساها النقاش العربي، هي الآتية: ما الذي جعل الإمبريالية، البريطانية بخاصة آنذاك، التي ألحّت على تمزيق مركز القومية والحضارة العربية في بلاد الشام والعراق، في مؤامرة سايكس ـ بيكو، تقدم الدعم لتوحيد مناطق الجزيرة تحت إمرة آل سعود؟ ألم تكن تلك الصيغة الوحدوية الغاشمة المتحققة بالعنف، سوى الطريقة الملائمة لإخضاع المناطق القابلة للتقدم في الجزيرة العربية، لحكم الرجعية الصحراوية الوهّابية؟

في خواتيم الحرب العالمية الثانية، انتقلت رعاية النظام السعودي، من الإنجليز إلى الامبريالية الأميركية، فتحولت الرياض إلى مركز للتآمر على وحدة المشرق، والوحدة المصرية ـ السورية، وثورة اليمن، وتجربة ناصر التحررية، إلى درجة تحريض الأميركيين والإسرائيليين على توجيه ضربة لنظامه، قبل عام 1967، وقبل ذلك وبعده، الإمساك بمفاصل حركة التحرر الفلسطينية، وإخضاعها سياسياً، ومحاربة كل نزوع تحرري وتقدمي ومقاوم في العالم العربي، ودعم الانقلاب الساداتي.

الإنجليز، فالأميركيون، رأوا، في الرجعية السعودية، أداة استراتيجية، لتحقيق أربعة أهداف رئيسية: السيطرة على المركز المعنوي للإسلام وتوظيفه في نشر صيغة رجعية تكفيرية متوافقة مع المنظور الديني العنصري الإسرائيلي، ونهب البترول، ومنع التوجهات الاستقلالية والتنموية في منطقة البترول، واستخدام النظام السعودي وفوائضه المالية في مجابهة حركة التحرر العربية.

موّل آل سعود، واستخدموا، في توافق كامل مع استراتيجية الإمبريالية الأميركية، وبرعايتها، الحركات الدينية الرجعية، كالإخوان المسلمين، وشبكات الدعاية للوهابية في العالمين العربي والإسلامي، كما لدى الأقليات المسلمة في العالم، وتمكنت من تحشيد أكبر جيش إرهابي في التاريخ، حتى حينه، للقتال ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان، وإطلاق منظمة «القاعدة» والحركات السلفية ـ المقاتلة، واستخدامها حيث يريد الغرب، كما حصل في حرب تفكيك يوغسلافيا.

كان آل سعود مركز التآمر على الدولة العراقية، بتوريطها في حرب طويلة مع إيران، ثم التخلي، مع الكويتيين والخلايجة، عنها بعد الحرب، والتحريض على ضرب العراق، وحصاره، واحتلاله، وتدميره، ولاحقاً، التسلل إلى مقاومته، وحرفها باتجاه تحويلها إلى ميليشيات وهابية، وإشعال الحرب المذهبية في بلد طالما كان مجتمعه منسجماً ومتحضراً. كان آل سعود المموّل والمسهّل والصانع لظاهرة القاعدة ـ داعش في العراق. ومنذ عام 2011، تشن

السعودية ـ وقطر وتركيا والوهابيون في الخليج ـ حرب إبادة تكفيرية طائفية إرهابية ضد الدولة والمجتمع السوريين، ولا تزال ترفض كل إمكانية لتسوية توقف أنهار الدم السوري؛ وتتحالف مع إسرائيل، ضمناً وعلناً، ضد محور المقاومة، بحجة أولوية التصدي لـ «الخطر الإيراني». القوات السعودية المسماة «درع الخليج» تقمع شعب البحرين المسالم على مدى أربع سنوات، وتقمع أبناء الجزيرة العربية من الشيعة والمتنورين والوطنيين. وفي ذروة من الجنون الحاقد، تشن، شهراً وراء شهر حرب إبادة ضد الشعب اليمني لمنعه من التحرر والتقدم. وهي عملية تاريخية من شأنها قلب المعادلات الجيوسياسية للجزيرة العربية.

كفى! قالها الأمين العام، حسن نصرالله، فأسدل السيد الستار على أربعين عاماً من الصمت على جرائم آل سعود، وشبكاتهم السياسية والدينية والمالية والإعلامية والإرهابية. وإذا كان هناك، من أدعياء اليسار والليبراليين والقوميين، مَن هم أسرى تلك الشبكات، لم يعد مقبولاً من القوى اليسارية والقومية والديموقراطية الجادة، أي تردد في تبني المهمة التي طرحها السيد في مكانها وزمانها، لا بوصفه أميناً لحزب الله، بل بوصفه أميناً للمرحلة الجديدة من حركة التحرر الوطني العربية.

لقد قدّم نصرالله، في أوراق اعتماده لموقعه الجديد هذا، بالإضافة إلى تحديده المهمة المركزية للتحرر العربي، ثلاث أوراق تضعه في صدارة تجمع جبهوي، هي: (1) اعترافه بتعددية قوى

المقاومة في لبنان (حزب الله، حركة أمل، جبهة المقاومة ـ القومية الشيوعية)، (2) نشيده البليغ الشجي الجميل العميق غير المسبوق في امتداح العرب وتاريخهم ونسبهم وقبائلهم وشيم العروبة، قبل الإسلام وبعده، خلال امتداحه أهل اليمن، أصل العرب وفرسان الإسلام، (3) شكره القلبي الصادق لصمود سوريا ـ وهي، للتذكير، قومية وعلمانية ـ لصمودها في وجه قطعان الإرهاب، وخططها لاجتياح لبنان وذبح اللبنانيين وهدم مساجدهم وكنائسهم.

18 نيسان 2015

المقاوِم يُقارب خطاب التحرر الوطني

بينما تذهب قوى إسلامية متدرجة من الليبرالية والأخونة إلى الوهابية والسلفية الإرهابية والمذهبية؛ وبينما يسقط مفكرون إسلاميون، قدّموا أنفسهم كعقلانيين، ومثقفون قوميون، قدموا أنفسهم كديموقراطيين، في مستنقع التماهي مع «النصرة» و«داعش» و«جيش الإسلام»؛ وبينما يصمت يساريون أو يقفون على «الحياد» حيال الكارثة الثقافية والأخلاقية والإنسانية التي تجتاح بلاد العرب؛ بينما يسود الظلام، وتتمدد الظلامية، يدهشنا قائد المقاومة الإسلامية، وسماحة السيد، وأمين حزب الله، باختراقات فكرية ـ سياسية تقدمية، تمنحنا الأمل بتلاحم مشروع التحرر الوطني بمشروع المقاومة، وتكوين الكتلة الاجتماعية التاريخية، القادرة على تحقيق مهمات التقدم العربي.

أولاً، في التحرير والتحرّر. لا ينطوي مفهوم المقاومة، بحد ذاته، على مضمون اجتماعي ـ سياسي؛ هدف المقاومة هو تحرير بلد محتل أو أرض محتلة، من دون أن يطرح المقاومون، بالضرورة، الهدف التالي. تاريخياً، وباستثناء حركات المقاومة التي

قادتها أحزاب شيوعية مهيمنة، لم ينته مشروع التحرير إلى مشروع تحرر عنوانه الأول هو الاستقلال، السياسي والاقتصادي والثقافي. أقرب نماذج المقاومات من هذا النوع، هو النموذج العراقي؛ إذ لم يشهد التاريخ العربي قوة صدم للمحتل، كما فعلت المقاومة العراقية التي حققت هدفها في التحرير في وقت قياسي (2011 ـ 2013)، لكنها فشلت في ضمان استقلال البلد ووحدته ووحدة مجتمعه، وإعادة بناء دولته وقدراته التنموية. ينطبق ذلك، أيضاً، على المقاومة في لبنان؛ فهي تمكّنت من طرد المحتلين الإسرائيليين في عام 2000 وكسر قدرتهم على الردع، عام 2006، ولكن من دون تحقيق نتائج سياسية بالنسبة للبنان؛ فبقي تابعاً، ممزقاً، بلا دولة تنموية أو حتى خدمية، ومعقلاً للمؤامرات على المقاومة التي أنجزت التحرير والردع.

إلى وقت قريب، كان فكر السيّد ـ وحزب الله ـ يركّز على مفهوم المقاومة كحركة كفاح مسلّح، وعلى مجتمع المقاومة كبيئة حاضنة للحركة، تتفاعل معها على صُعُد مدنية، ولكن من دون طرح أي أفكار تحررية. التجربة القاسية، والبطولية، في سوريا، وضعت حزب الله وقائده في مواجهة استحقاق فكري رئيسي يتعلّق بأولوية مفهوم الاستقلال؛ لطالما سوّغ نصرالله كفاح حزبه في سوريا بالدفاع عن لبنانيين يقيمون على الأراضي السورية، وحماية مقامات آل البيت، والوفاء لسوريا التي تشكّل الجدار الاستنادي للمقاومة في لبنان وفلسطين. اليوم، تراجعت هذه المسوّغات، في

فكر السيّد، لصالح التركيز على أولوية الدفاع عن استقلال سوريا. الميزة الأساسية للدولة الوطنية السورية استقلالها، وتدمير هذا الاستقلال مطلب الحرب الامبريالية الرجعية الإرهابية عليها. قل ما شئت في نقد النظام السوري، إنما لا أحد يستطيع إلا أن يقرّ باستقلال قراره السياسي والدفاعي والاقتصادي. وهذا الاستقلال هو أثمن ما لدى السوريين لأنه، رغم كل الصعوبات، يفتح باب الديموقراطية ـ إذ لا ديموقراطية كنظام سياسي اجتماعي من دون استقلال ـ وباب التنمية والتقدم الاجتماعي. وهذه عملية صراعية، بالطبع، ولكنها تجري داخل سياق وطني. ولذلك، بالذات، هي ذات أفق مفتوح، بينما تغلق التبعية كل الآفاق التقدمية أمام الدول والمجتمعات.

في دفاعه الحار عن ثورة الشعب اليمني، ركّز السيد، قبل كل شيء، على حق اليمنيين بالتحرر من التبعية، وضمان استقلال وطنهم، كمقدمة لا بد منها لتحقيق الأمن والاستقرار والازدهار في يمن آن له أن يكون سعيداً. ومثلما أن هدف الحرب السعودية الخليجية على سوريا يكمن في نزع استقلالها، فالعدوان على اليمن هدفه الرئيسي منع قيام دولة وطنية مستقلة في هذا البلد العربي العريق.

ثانياً، في العلمانية. ليست كل العلمانيات واحدة، وليست كلها إلحادية، وليست كلها غربية؛ فالعلمانية صيغة فكرية ـ سياسية، يتحدد مضمونها وفق ضرورات المجتمعات القومية؛ ففي

المشرق، لا تقوم العلمانية على أساس الفصل الجذري بين الدين والسياسة، وإنما حيادية ومدنية الدولة الوطنية إزاء الطوائف والمذاهب والإتنيات، والقبول بالتعددية الدينية والمذهبية والثقافية، على أساس حقوق المواطنة الفردية وحقوق الإنسان. في تراث الإمام علي، نصٌ على هذا النوع من العلمانية؛ فالإنسان، عنده، اثنان: أخٌ لك في الدين، ونظيرٌ لك في الخَلْق، أي في الإنسانية. ولو كان مفهوم الدولة القومية، قائماً، في عصره، لأضاف: وشريكٌ لك في الدولة.

في فكره المقاوم، لطالما أعطى السيّد إشارات علمانية، بإلحاحه على أولوية المقاومة على الولاءات الدينية والمذهبية والفكرية والثقافية؛ لكنه، بعد التجربة السورية، واجه، وحزبه، حقيقة اندماج المجاهدين المقاومين في معركة الدفاع عن الدولة القومية العلمانية التعددية في سوريا. وتضحيات مقاومي حزب الله في معلولا، ماثلة، وما زال مشهد التحية العسكرية لأحد أبطال المقاومة أمام تمثال مريم العذراء فيها، شاهداً على تجذّر روح التعددية في ثقافة المقاومة.

من القتال في البوسنة، جنباً إلى جنب مع السلفيين والوهابيين، إلى القتال في معلولا، ضدهم، قفزة حملت حزب الله إلى موقع تقدمي، طوّره نصرالله، أخيراً، بإعادته الاعتبار إلى علمانيي المقاومة في لبنان، وتذكيره بجهود «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية»؛ تلك التي أطلقت المقاومة ضد المحتل الإسرائيلي، عام

1982. يستدعي هذا التطور، إعادة كتابة تاريخ المقاومة في لبنان، وفقاً لمنظور تعددي. وسيكون ذلك العمل ضرورة للحم القوى الوطنية على اختلاف مشاربها الأيديولوجية وتكويناتها الاجتماعية والجهوية والكيانية، لتجذير ثقافة المقاومة والمواطنة في لبنان.

ثالثاً، في العروبة. ليست روح العروبة، بالنسبة لحركة المقاومة والتحرر في بلادنا، شأناً برّانياً، وإنما مكوّنٌ عضوي.

وإلى ذلك، فنحن نواجه، اليوم، استخداماً مكثفاً ليافطة العروبة ضد العرب؛ (1) فالرجعية الوهابية، ورعاتها في واشنطن وتل أبيب، يشنون حملة شاملة على كل ما هو وطني وإنساني وتقدمي وشريف عند الشعوب العربية، باسم العروبة. وهي مهزلة تنطلي، بسبب انتشار المذهبية وشبكة الإعلام الرجعي، على أقسام من الرأي العام في البلدان العربية، (2) وبالنسبة لحزب الله، تتمحور الدعاية الرجعية ضده على نفي صفته العربية، وإلحاقه، لا بالمعنى السياسي فقط، وانما بالمعنى الرمزي والهويتي، بالحليف الإيراني.

في مواجهة هذه الدعاية السوداء، وما تمثله من خداع وتضليل، ذهب السيد إلى مكنون وجدانه العربي، فقدّم، في امتداحه للشعب اليمني العربي الأصيل، قائمة بصفات العرب لا ينطبق أيٌ منها على آل سعود؛ فالعرب، في وصف السيّد، أهل الفصاحة والبلاغة والحماسة والإباء في وجه الضيم والنخوة والغيرة والكرم والجود.

جاء الوقت، لكي يتخلى السيّد عن خَفَره، ليقول: نحن العرب! ومشكلتهم معنا أننا عرب!

أولئكَ آبائي؛ فجئْني بمثلِهم إذا جَمَعتْنا، يا جريرُ، المجامعُ

ولا يستقيم مفهوم العروبة، إلا بالمدنية، وإلا بالسَّبْق الحضاري على الأديان والمذاهب؛ فقبل الإسلام، كان اليمنيون هم حضارة العرب. وحين كانت شبه الجزيرة العربية لا تتقن القراءة والكتابة، وتقتتل على ساقية ماء، ولا يعلو فيها مستوى سياسي على مستوى شيخ عشيرة، كان في اليمن حضارة ومدنية ودول وملوك، هم ملوك العرب.

في هذا النص، كثّف السيد، ما يميّز العربَ ـ العربَ، من صفات تدعو للاعتزاز القومي، وتوصّل إلى الفكر القومي العلماني وتواصل معه، وعماده (1) استقلال العروبة، كمفهوم وانتماء وتاريخ وحضارة وثقافة، عن الأديان والمذاهب؛ فهي، إذاً، إطار تعددي لجميع مكوناتها، (2) مدنيّة العروبة؛ فلا عروبة إلا بالتمدّن، وسواها أعراب الصحراء.

21 نيسان 2015

المقاوِم.. على تخوم المادية التاريخية

في 15 تشرين الأول 2015، ألقى حسن نصرالله، في جمهور العزاء بالشهيد الحسين بن عليّ، خطابا تضمن جملة المفاهيم التي تأسست عليها حركة التحرر الوطني؛ تلك التي طالما طالعتنا بها أدبيات الأحزاب الشيوعية العربية، قبل أن تغرق في مستنقع الليبرالية؛ مَن كان يتوقّع أن سيّداً معمّماً هو الذي سيعيد إحياء الخطاب الشيوعي العربي من سباته؟ ألا إن حركة الجدل بين الفكر الثوريّ والتاريخ الاجتماعي، تسير في طرق وعرة مفاجئة، وفي الحالة العربية، ها هي تعرب عن حضورها الضروري، من خلال تحوّل نوعي في فكر قائد المقاومة الإسلامية في لبنان، لا من أدبيات قوى تنتسب إلى اليسار.

تموضع الدينيُّ في هذا الخطاب بوصفه أحد عناصر التحريض على الإندراج في نهج التحرر الوطني؛ هنا، ننتقل من هيمنة الديني، بوصفه عقيدة وشريعة، إلى إشعال جذوة الإيمان بأمثولة الثائر الشهيد الحسين بن عليّ، وتوظيفها في النضال التحرري؛ ففي

الخلاصة، يقول نصرالله إن الإمبريالية الأميركية، تعرض علينا الاختيار بين العبودية والحرب، بين الركوع والنضال. كان ذلك الاختيار هو ما واجهه الحسين، فاختار حريته وكرامته وانتصاره للمبادئ حتى الاستشهاد؛ فأصبح أمثولة نضالية هي التي تلخّص جوهر ذكرى الحسين. هل ينبغي أن تكون مسلماً مؤمناً لكي تقتدي بالحسين؟ أو أن تكون مسيحيا لتقتدي بالمسيح الذي اختار الصليب دفاعاً عن ابن الإنسان؟ وهل ينبغي أن تكون ماركسيا، لتتأسّى بالثائر الأرجنتيني الشهيد أرنستو تشي غيفارا؟

لا يحدد نصر الله خندقيّ المجابهة التاريخية على أساس الإيمان والكفر، بل وفق منظور الصراع بين الاستعمار والتحرر الوطني، ولا يدعو المؤمنين إلى النضال من أجل تطبيق الشريعة، بل من أجل حرية الأوطان والشعوب، وحقها في السيادة على قرارها وثرواتها ومصيرها. وبذلك، يكون نصرالله قد وصل إلى القطيعة الكاملة مع الإسلام السياسي بكل أشكاله، السني والشيعي، التقليدي والحديث، الجامد والتنويري، المعتدل والمتطرف؛ فالإسلام السياسي هو تيار سياسي يقوم على محور الحل الديني، أي فرض الشريعة (بالتفسير المذهبي الخاص بكل حركة) بوصفها الحل لكل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وصولاً إلى المشكلات الفكرية والعلمية والصحية ـ الطبية الخ. ويحدد الإسلام السياسي موقفه من الآخر، لا على أساس قضايا الصراع الوطني والاجتماعي، وإنما على أساس ديني ومذهبي

وعقيدي. وحتى قضية الصراع مع إسرائيل، يحوّلها الإسلام السياسي، في النهاية، إلى صراع إسلامي ـ يهودي، كما يحوّل الصراع مع الاستعمار الغربي إلى صراع إسلامي ـ صليبي. الإسلام السياسي لا يؤمن بالمواطنة والشراكة والإخاء، خارج الجماعة الدينية ـ المذهبية التي ينتمي إليها، ويرفض، تالياً، الوطنية التي هي رباط بين مواطنين متساوين بغض النظر عن عقائدهم.

نصرالله، بالمقابل، يحدد الصراع التاريخي الراهن، لا بوصفه صراع حضارات وأديان ومذاهب وعقائد الخ، كما هو حال الإسلام السياسي، بل بوصفه صراعاً بين قوى الاستعمار العالمي والشعوب الطامحة إلى التحرر الوطني. والدافع الاستعماري ليس الحقد الصليبي على الإسلام، وإنما نهب ثروات العالم العربي والإسلامي، وإخضاعه كسوق للسلع، وأهمها السلاح. وهذا ما ينطبق على دول أخرى ليست عربية ولا مسلمة، بعضها مستسلم، وبعضها، كروسيا وفنزويلا، يقاوم الناهبين. وعلى عكس ما يقول به الإسلام السياسي من سيطرة صليبية أو يهودية أوماسونية الخ على القرار الأميركي، يؤكد نصرالله أن القرار هو لشركات النفط والسلاح.

ويضع نصرالله، النقاط على الحروف لفهم سلسلة الحروب التكفيرية والطائفية على سوريا والعراق واليمن؛ أنها حروب بالوكالة عن الاستعمار الأميركي والغربي، تشنها، كأدوات، التنظيمات التكفيرية والأنظمة الرجعية، مستخدمةً التحريض الطائفي

لاستقطاب مقاتلين مضللين يحاربون لتنفيذ الأهداف الأميركية في «استنزاف مقدرات دول وشعوب هذه المنطقة، استنزافها بشرياً ومالياً واقتصادياً واجتماعياً ونفسياً».

في الموقف من إسرائيل، يتماهى خطاب نصرالله، كلياً، مع الخطاب اليساري التحرري العربي، لما قبل حقبة الليبرالية؛ فهو يعلن أن «إسرائيل ليست هي المشروع»، إسرائيل أداة للاستعمار الأميركي، وليست هي التي تحكم الولايات المتحدة، بل العكس. وبذلك، ينقض نصرالله جملة كاملة من المفاهيم المسيطرة حول الصراع مع إسرائيل، ومنها، أولا، مفهوم الإسلام السياسي الذي يرى ذلك الصراع، قتالاً أبدياً بين المسلمين واليهود، وثانياً، المفهوم التقليدي، الرجعي والليبرالي، للأنظمة والنخب العربية التي رأت، وترى أن الولايات المتحدة يمكن أن تكون قوة محايدة في الصراع العربي الإسرائيلي، إذا ما عزّز العرب علاقاتهم بها، وعملوا على صد تأثير اللوبي اليهودي فيها. وهذا المفهوم الذي تأسست عليه عملية السلام من كامب ديفيد إلى أوسلو ووادي عربة. وهو ما يزال يحكم السياسة العربية، الحاكمة والمعارضة، معا. والهدف من هذه السياسة هو تبرير التبعية للاستعمار الأميركي على رغم دعمه للصهيونية، وثالثاً، المفهوم الذي تتبناه منظمة التحرير الفلسطينية، منذ سيطرة فتح عليها، ويقوم على اعتبار الصراع مع إسرائيل، صراعاً فلسطينيا ـ إسرائيلياً، يمكن حلّه، بالمواجهة الثنائية أو، كما هو الاتجاه الآن، بالتسوية الثنائية.

غير أن إسرائيل، في المفهوم التحرري ـ وقد تبناه نصرالله كلّيا ـ هي مجرد أداة استعمارية، لتحقيق أهداف استعمارية، والمجابهة معها، هي، إذاً، مجابهة شاملة مع السيطرة الاستعمارية، وأدواتها الأخرى من أنظمة رجعية وتابعة وقوى طائفية وتكفيرية. إسرائيل جزء من مشهد استعماري كامل، ولا يمكن الإنضواء في هذا المشهد ومجابهة إسرائيل في الوقت نفسه.

مقتطفات من خطاب نصرالله
(15/ 10/ 2015)

الاستعمار هو العدو الرئيسي:

«أميركا، كوريث لقوى الإستعمار القديم، ومعها بقية قوى الإستعمار القديم وفي مقدمها فرنسا وبريطانيا، هدفها الهيمنة على منطقتنا وبلادنا؛ الهيمنة على كل صعيد، وأن تكون هذه المنطقة تحت سيطرتها، سياسياً وعسكرياً وأمنياً واقتصادياً وثقافياً. هذا هو الهدف، أن يكون كل من في هذه المنطقة، سواء الحكومات أو الشعوب أو القوى السياسية أو النخب المجتمعية، أن يكون الجميع خاضعاً ومسلّماً وتابعاً لإرادة الولايات المتحدة الأميركية. ما تريده لنا بالسياسة يجب أن نقبل به، ما تريده لنا بالعلم يجب أن نقبل به، ما تريده لنا بالاقتصاد يجب أن نقبل به، ومدّت يدها أيضاً إلى الثقافة والدين، أمريكا تريد منا جميعاً أن نقبل بـ «إسرائيل» في المنطقة، فيجب أن نقبل «بإسرائيل» في المنطقة! ممنوع أن تعاندوا

«إسرائيل» أو تقاتلوها أو تقاوموها، أو حتى أن تناقشوها في شروط بقائها أو وجودها وهويتها وماهيتها! ما تريده أميركا يجب أن يخضع له الجميع، وأن يقبل به الجميع، ومن لا يخضع، ومن لا يقبل، سيواجه الحرب؛ عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وامنياً واعلامياً. هذا هو ثمن الإرادة الحرة في العالم اليوم، ليس فقط في العالم العربي والعالم الإسلامي، من يريد أن يكون حراً في هذا العالم، سيداً في بلده وفي شعبه، ومن يريد أن يكون مستقلاً يأخذ قراراته على أساس مصالح وطنه وشعبه وأمته، هذا غير مقبول أميركياً، وعليه أن يستعد لأي شكل من أشكال الحرب الأميركية».

النهب، وليس الدين، هو أساس الدافع الاستعماري:

«هم (الأميركيون والغربيون) يريدون أن يكون النفط والغاز وكل الموارد الطبيعية في العالم العربي والإسلامي في قبضتهم. في الظاهر النفط والغاز هو للحكومات العربية والإسلامية، ولكن في الواقع هو لأميركا ولشركات النفط الكبرى في الولايات المتحدة الأميركية من خلال شركاتها في المنطقة، والحكومات العربية والإسلامية هي عاجزة... هم يريدون إذاً النفط والغاز والمعادن، الحكومات لا تملك حتى أن تسعّر سعر النفط؛ يعني عندما تريد أميركا أن توجه ضربة إقتصادية كبيرة مثلاً لإيران أو للعراق أو لروسيا أو لفنزويلا أو لأي دولة في العالم في دائرة المواجهة والإخضاع، هي تأمر الحكومات العربية والإسلامية بأن تخفض سعر النفط، ولو كانت هذه الحكومات هي أيضاً سيلحق بها الفقر

والعجز والمصاب، لأن القرار ليس في أيديهم. هم يريدون خيرات بلادنا لهم، وأيضاً هم يريدون بلادنا أسواقاً لهم، لكل منتوجاتهم، حتى لسلاحهم؛ فقط هذه السنتين والثلاث سنوات إذا كنتم تتابعون الأخبار، كم هي مشتريات السعودية وقطر والإمارات ودول أخرى من السلاح من أميركا بشكل خاص، ومن فرنسا وبريطانيا؟ عشرات مليارات الدولارات، فقط في هاتين السنتين والثلاث سنوات الأخيرة، عشـرات مليـارات الدولارات لشراء طائرات وسفن ومدافع ودبابات والله أعلم إن كانوا يحتاجونها أم لا يحتاجونها، ولكنهم يرتبون أسواقاً لشركات السلاح الأميركية الكبرى، لأن الذي يحكم في أميركا ليس جمعيات حقوق الإنسان، بل الذي يحكم في أميركا هم أصحاب شركات النفط الكبرى وشركات السلاح الكبرى».

عناصر التبعية للاستعمار، اقتصادية وسياسية:

«ماذا تريد أمريكا من دول وحكومات المنطقة؟ هي تريد السياسة الخارجية والأمن والنفط والغاز، الباقي لا مشكلة. يعني إذا أردنا القيام بتوصيف لكثير من دولنا وحكوماتنا، هي حكومات سلطات حكم إداري ذاتي يرئسها من يسمى ملك أو أمير أو رئيس، ولكن هي ليست دولا حقيقية وليست سلطات حقيقية، لأن قرار السياسة الخارجية هو لأميركا، وقرار الحرب والسلم عند أميركا، وقرار النفط والغاز عند أميركا، وقرار السوق الكبرى عند أميركا، هذه هي حقيقة منطقتنا».

الحروب المحلية ضرورة استعمارية:

«اليوم، من أجل استمرار هيمنتها على بلادنا، هدف أمريكا من الحروب، من القتال، من الصراعات. . . استنزاف مقدرات دول وشعوب هذه المنطقة، استنزافها بشرياً ومالياً واقتصادياً واجتماعياً ونفسياً.»

«بعد الهزائم التي لحقت بإسرائيل في المنطقة، من الثمانينيات إلى ال2000 في لبنان، إلى الانسحاب من غزة، إلى حرب تموز 2006، إلى هزيمة أمريكا في العراق، وفي أفغانستان، وبعد التطورات الأخيرة في العالم العربي والإسلامي وما سُمي بالربيع العربي، دخلت أمريكا على الأحداث من جديد، وأطلقت حرباً جديدة. وأنا أقول لكم، بعد قراءة وتمعن وجمع كل القرائن والأرقام، إنها حرب أمريكية على كل من يرفض الخضوع للهيمنة الأمريكية».

«عندما نقف مثلاً أمام ما حدث في سوريا والعراق؛ نجد أن دولاً غربية وعربية وإقليمية، تجمع عشرات الآلاف من المقاتلين التكفيريين، وتأتي بهم من كل أنحاء العالم، وتقدم لهم التسهيلات والأموال وآلاف الأطنان من السلاح والذخائر، بل تقدم لهم الأسلحة المتطورة جداً كصواريخ التاو المضادة للدروع؛ ونسأل: هل تفعل هذه الدول العربية والإقليمية ذلك بدون رضا أمريكا؟ من دون علم أمريكا؟

لا، هذا بالأصل مشروع أمريكي تعمل به السعودية وتعمل به

دول عربية أخرى، وتعمل به تركيا وتعمل به دول غربية، هذا المشروع، الحرب الدائرة الآن في المنطقة قائدها الحقيقي هو الولايات المتحدة الأمريكية، هي التي تدعم وهي التي تساند وهي ضابط الإيقاع وهي المنسق وهي التي تدير كل هذه المعركة في منطقتنا.

هدف الحرب على سوريا هو إخضاع سوريا للإرادة الأميركية. وهي التي كانت متمردة على الإرادة الأميركية. وهؤلاء يقاتلون في خدمة المشروع الاميركي، علموا أم لم يعلموا، أكانوا علمانيين أو إسلاميين، أكانوا يحملون القرآن أو يتحدثون عن أي شيء آخر، هذه الحرب الآن في سوريا، على سورية وعلى كل من فيها، هي حرب لإخضاع سوريا للإرادة الاميركية».

«في العراق؛ من الذي قدّم المال والسلاح والدعم والتسهيلات لداعش؟ أمريكا وكل أصدقاء أمريكا بالمنطقة. لماذا؟ لأن أمريكا تريد أن تخضع العراقيين بعد أن طردوها وهزموا احتلالها، أمريكا تريد أن تخضعهم وتريد أن تذلهم وتريد أن تعيدهم إلى بيت الطاعة، وتريد ان تقول لهم لا حامي لكم اليوم من داعش وأخوات داعش إلا أمريكا، تعالوا إليّ قبّلوا يديّ، اخضعوا لي، ما أريده تنفذوه، اقول لكم أريد إنشاء قواعد رغماً عن رقبتكم، عليكم أن تقبلوا بالقواعد الأمريكية».

«الحرب على اليمن هي حرب أميركية؛ يريدون إخضاع اليمن ليس للسعودية فقط، إنما يريدون إخضاعها لأمريكا ولتبقى في دائرة

الهيمنة الاميركية، هم أرادوا لهذه الحرب ـ هذه حقيقتها ـ أن تأخذ بعداً طائفياً، وبعداً مذهبياً، وبالتحديد أن تتحول إلى حرب سنيّة شيعيّة، لكي يتمكنوا من تجنيد المقاتلين على أساس مذهبي...».

إسرائيل مجرّد أداة استعمارية:

«إسرائيل ليست المشروع، إسرائيل هي أداة تنفيذية في مشروع الهيمنة الأميركي الغربي على منطقتنا، هي تؤدي دوراً تنفيذياً وإجرائياً في خدمة الهيمنة الاميركية على منطقتنا، لذلك يقومون بحمايتها في كل مكان في العالم، في مجلس الأمن، ويقدمون لها الدعم المالي والاقتصادي والعسكري، وإذا تعرضت لخطر جدي سيقاتلون للدفاع عنها. هذه إسرائيل. تصوروا لو جاء يوم أمريكا ضعفت أو خرجت من المنطقة أو انشغلت بحالها لأسباب داخلية اجتماعية اقتصادية وما شاكل، ماذا سيكون مصير إسرائيل، هل إسرائيل هذه قابلة للبقاء على قيد الحياة في منطقتنا؟ أبداً، إسرائيل هذه هي أداة امريكية حقيقية والشعب الفلسطيني اليوم وشعوب المنطقة، وفي مقدمها الشعب اللبناني، الذين عانوا من العدوان الإسرائيلي والاحتلال الإسرائيلي والمجازر الإسرائيلية إنما يتحملون أعباء مشروع الهيمنة الاميركية، وإسرائيل هي أداة. الذي يتحمل المسؤولية الأولى وبالأساس عن كل جرائم إسرائيل ومجازر إسرائيل واحتلال اسرائيل وما تفعله اليوم في القدس وفي المسجد الأقصى وفي الضفة الغربية وقطاع غزة وداخل فلسطين قبل نتنياهو وجيش نتنياهو الإرهابي هو أمريكا والإدارات الأميركية المتعاقبة.

الذي يتحمل المسؤولية هي الإدارة الأميركية الحالية والإدارات الأميركية المتعاقبة.»

تتغير الادعاءات، ويبقى الهدف الاستعماري منع التنمية والاستقلال:

«عندما نرى أمريكا تطالب بالانتخابات والديمقراطية وحقوق الإنسان في كل الدول؛ هل نصدّقها؟ الولايات المتحدة تدعم أعتى الديكتاتوريات وأسوأ أنظمة الفساد في المنطقة وأسوأ أنظمة الاعتداء على حقوق الإنسان، وتدعم أنظمة لا دساتير لها ولا انتخابات فيها ولا تداول للسلطة ولا هامش ولو بسيط على الانترنت للتعبير عن الرأي، وإلا يُحكَم على (صاحب الرأي) بمئة جلدة أو بألف جلدة أو بالإعدام، عندما نجد أمريكا تدعم هذا النوع من الحكومات والأنظمة، فهذا معناه أن كل كلامها عن الديمقراطية والانتخابات وحقوق الإنسان وتداول السلطة ومحاربة الفساد، أكاذيب وأضاليل». وهم يستخدمون هذ الأكاذيب «لإخضاع الدول التي رفضت الخضوع للهيمنة الأمريكية؛ فيفرضون عليها الحرب أو الحصار أو العقوبات أو الصراعات الداخلية».

التأخُّر الأيديولوجي
في
المسألة الاقتصادية ـ الاجتماعية

حسن نصرالله وحزبه، في مرحلة ما بعد المشاركة في الدفاع عن الجمهورية العربية السورية، ليسا كما كانا قبلها؛ فالحرب السورية التي خاضاها، بالأساس، دفاعاً عن المقاومة، وتحت حجج الدفاع عن مقامات ومقدسات شيعية، أخذتهما إلى فضاء آخر. لم تكن لدى القائد والحزب، عدّةٌ فكرية لاستيعاب مستجدات وتعقيدات الصراع في سوريا، وعلى سوريا، ولكن نصرالله، بذكائه القيادي، استوعبها سريعاً، وعالجها بجرأة، متخلياً عن مستبقات التأخُّر الأيديولوجي الذي يَسِمُ أكثر الإسلاميين ثوريةً وصدقيةً، بميسمه. ومن الواضح أن نصرالله بذل جهوداً استثنائية على هذا الطريق، تلمّسناها في الفصول السابقة، وحلّلنا دلالاتها، وتوصّلنا إلى استنتاجنا الرئيسي القائل بالقفزة النوعية لانتقال حسن نصرالله إلى خطاب حركة التحرر الوطني في جملة قضايا أساسية كالنظر إلى الصراع العالمي كصراع بين قوى النهب والعدوان الاستعمارية وبين الدول المستقلة. وهي نظرة تحكم القضايا الأخرى كالصراع مع إسرائيل، وطبيعة التحالفات، المحلية

والإقليمية والدولية، وأولوية الاستقلال والدولة الوطنية والتنمية، وصولاً إلى القبول الواقعي بنوع خاص من العلمانية.

إلا أن نصرالله وحزبه، لم يتمكنا من التوصُّل إلى الشق الثاني في أيديولوجية حركة التحرر الوطني، أعني الشق الاجتماعي؛ ففي هذا المجال، بقي نصان نقديان، كتبتهما عام 2009، يحتفظان بفاعليتهما حتى الآن:

قضية صلاح عزالدين ودلالاتها

(15 أيلول 2009)

من بين كل منظمات الإسلام السياسي، أظهر حزب الله أنه الأكثر صدقيةً وتقدماً وفعالية. كما أنه لا نظير للأمين العام للحزب، السيد حسن نصر الله، في أوساط الإسلام السياسي وتاريخه كله: قائد وطني كبير حقاً، وواسع الأفق، وصاحب قضية عيانية هي مقاومة إسرائيل، ومقاتل شجاع، ويتّسم بلا شك بالصدقية والنزاهة. ورغم ذلك كله، بل بسبب ذلك كله وسواه من الفضائل، فإن تصريحات نصرالله بشأن قضية الحاج صلاح عزالدين، تستوجب مناقشة صريحة.

معه حق نصرالله؛ فهناك العديد من المتربصين بحزب الله، بسبب كفاحيته ضد إسرائيل، ممن أفادوا، وسيفيدون من قصة إفلاس الحاج صلاح عز الدين. وقد تكون الشائعات، بالفعل، أكبر بكثير من الحقيقة. وقد تنكشف الحقيقة عن أن الحزب، كمنظّمة، غير متورّط في القضية التي تخضع لتحقيقين، عدلي وحزبي. على أنّ كل

ذلك، على أهميته، يعني القضاء والحزب وجمهوره والمتضررين، ولا يعني الفضاء العام للنقاش الفكري الذي لم يعد بمقدور الحزب تجاهله. وللنقاش، سوف نعتمد نص الدفاع الذي أدلى به نصر الله نفسه (جريدة الأخبار، 8 أيلول 2009). يقول:

1 ـ «إنّ ما حصل هو مصيبة لحقت بالكثير من العائلات وهي مدعاة للتأثر والحزن»،

2 ـ «لم يشجع الحزب المواطنين أو المنتسبين إليه على وضع أموالهم في عهدة «الحاج صلاح»، لكن قد يكون للحزب بعض الأموال مع الرجل، لا تتجاوز أربعة ملايين دولار»،

3 ـ «إن هناك من بالغ كثيراً في الأرقام، المبلغ الفعلي الذي أضاعه عز الدين بحدود 400 مليون دولار»،

4 ـ«إن عدداً محدوداً جداً جداً من مسؤولي حزب الله استثمروا أموالهم مع عز الدين، وأن بينهم من وضع التعويضات التي حصل عليها جراء دمار منازلهم في حرب تموز»... أما المسؤول الذي استثمر بمبلغ مليون دولار أميركي فقد وضح أنه «جمع أموالاً من إخوته وأقاربه وأصدقائه ليضعها بعهدة عز الدين». حسناً؛

1 ـ إفلاس عز الدين هو، إذاً، «مصيبة». والمصيبة مصادفة عرَضية، وعند المؤمنين، قضاء وقدر. لكن هذه «المصيبة» بالذات حتمية. فالاستثمارات، في حالة عز الدين، ليست أسهماً في شركة مسجلة، ولا تخضع للرقابة والمحاسبة، ولا تضمنها أصول ولا قوانين أو هيكليات مصرفية أو تجارية. ولذلك، فهي غير قانونية

أصلاً، وتتضمن، ابتداءً، مغامرة يدركها المستثمر ضمناً، ولكنه يقبل عليها طمعاً بأرباح أكبر لا تتحقق بالمساهمات المقوننة المتعارف عليها. ولتحقيق تلك الأرباح، يلجأ منظمو جمع الأموال، على افتراض صدقيتهم، إلى ألوان من الأعمال غير الشرعية والمضاربات المالية والعقارية، وذلك لكي يضمنوا أرباحاً تفوق معدلات الربح المتعارف عليها في السوق (التي تتراوح بين 8 في المئة في الإنتاج الحقيقي و15 في المئة في العمليات المصرفية المضبوطة). وفي هذه الحالة، فإن منظمي الاستثمارات ذات الربحية الأعلى مضطرون لتدوير الأموال وتضخيمها مرات عدة في شبكة معقدة من المعاملات والمغامرات، تفوق، بالحتم، الأصول الحقيقية المعتَدّ بها كضمانات. هنا، يكون الإفلاس نتيجة حتمية للتناقض الحاصل بين حجم الأموال وحجم الأصول. «مصيبة» عز الدين كانت، إذاً، مكتوبة في جذر نشاطه ومآل حتمي لهذا النشاط المستند إلى أسلوب النيو ليبرالية المتوحشة في جني أرباح أكبر مما يولّده الاقتصاد الحقيقي بواسطة الفقاعات المالية والعقارية. وما حدث مع عز الدين هو صيغة متخلفة مما حدث في النظام الرأسمالي العالمي الذي بلغت معاملاته المالية 2000 ترليون دولار، فيما قيمة الاقتصاد العالمي الحقيقي لا تزيد عن 44 ترليون دولار، فكان حتمياً أن تندلع الأزمة المالية للرأسمالية في سلسلة من الإفلاسات..

2 ـ لا نعتقد أن حزب الله أصدر تعميماً لمنتسبيه وجمهوره باستثمار أموالهم لدى الحاج عز الدين. لكن الحزب شجعهم على ذلك، أولاً، بخلوّ نهجه السياسي والثقافي من أي نزعة نقدية مضادة

للرأسمالية، بل حتى للرأسمالية النيو ليبرالية ورؤيتها للعالم وقيمها القائمة على تحقيق الربح السريع الفاحش بأي ثمن، وثانياً، بقيامه هو نفسه باستثمار أربعة ملايين دولار مع الحاج عز الدين، ما يسبغ الشرعية على نشاطه، ويبذر الطمأنينة تجاهه بين أعضاء الحزب وأنصاره، وثالثاً، بقيام مسؤولين فيه بالاستثمار لدى الحاج عز الدين، بل اشتغال أحدهم، باعترافه شخصياً، بجمع الأموال لاستثمارها عنده. ونتوقف هنا عند المصيبة الفعلية التي انكشفت، جراء سقوط عز الدين، وهي التي تتلخّص في أن قسماً من مسؤولي حزب المقاومة وكادراته وأنصاره وجمهوره، مندرج في ثقافة البزنس النيو ليبرالي في أردأ أشكالها وأكثرها تخلفاً. وبينما يتوقع المرء من حزب الله أن يُلهم مناصريه قيم الإنتاجية والقناعة والتعالي على الطمع ونبذ الربح السهل وتنزيه الذات عن الأعمال غير القانونية، وتصعيد الروح الإنسانية، نراه متورطاً، بهذا القدر أو ذاك، في إلهام مضاد. وفي رأيي أن هذا منزلق لا مفر منه للإسلام السياسي، حتى في أحسن صوره السياسية، كما هي حال حزب الله، لأنه لم يتوصل بعد إلى امتلاك رؤية اجتماعية تقدمية تنهض على الإنتاجية والتشغيل والتنظيم المدني والنقابي والتوزيع العادل للثروة من خلال الصراع الطبقي، وتظهير مفهوم تنموي معاد للنيو ليبرالية. إنّ الرؤية الاجتماعية للإسلام السياسي تظل محكومة بمفهوم العمل الخيري. وهذا، عدا كونه بالنسبة لمنظمات الإسلام السياسي وسيلة براغماتية للتحشيد، يمثل، مفهومياً، اعترافاً بشرعية اللامساواة الاجتماعية، ومداواة جزئية لمآسيها، لا استئصالها. وعلى كل حال، فإن شرعية

اللامساواة الاجتماعية لدى الإسلام السياسي تنبع أصلاً من شرعية الملكية الخاصة والتجارة والربح عنده.

3 ـ والأموال التي أضاعها عز الدين، حسب تقديرات نصر الله، لا تقل عن 400 مليون دولار. ولئن كان السيد يستصغر هذا المبلغ (!) فهو بحد ذاته مبلغ ضخم جداً بالنسبة للاقتصاد اللبناني الحقيقي، وخصوصاً أنه ناجم عن تجميع (وتصدير) مدخرات عدد كبير من الأسر، ما يضاعف التأثير الركودي لسحب المبلغ من التداول، سواء في تأسيس مشروعات إنتاجية عائلية أم في شراء السلع والخدمات. إنها ضربة للاقتصاد الوطني جاءت، هذه المرة، لا من حيث هو متوقع، أي من عتاة الرأسماليين المرتبطين بالمشروع الأميركي، بل من طرف قوى تناهض ذلك المشروع بالسلاح، ولكنها تمكّن له ثقافياً وقيمياً وممارسةً. إن مأساة الأسر التي أضاعت مدخراتها مع الحاج عز الدين، هي مأساة ثقافية وقيمية بالدرجة الأولى. وهي تشير، سياسياً، إلى انتشار هاجس الصعود واللحاق بالطبقات العليا، باعتباره الهاجس المحوري للحياة. أين ذهبت الـ400 مليون دولار؟ لقد انتقلت من أيدي العديد من الأسر المتوسطة الحال إلى جيوب قلة من الرأسماليين المحليين والأجانب، أولئك الذين خسر الحاج عز الدين أمامهم. بمعنى آخر، فإن الحاج، مدعوماً من حزب الله ومستغلاً ثقافة الكسب لدى جمهوره، عمل كآلية نهب للمدخرات الاجتماعية لمصلحة كبار الرأسماليين الطُفيليين. وهو كان، في التحليل الأخير، واحداً منهم.

نقاش مع الدكتور سيف دعنا

(22 أيلول 2009)

يقول الدكتور سيف دعنا، في رده على نصي السابق، ما يلي: «إن جزءاً من تعقيد حالة حزب الله أنه يخوض عملية تحرير مزدوج، رفع المظلومية والاضطهاد عن جماعة اجتماعية مضطهدة عبر التاريخ، وفي لبنان فشلت التجربة الوطنية السابقة في القيام بها، وقيادة عملية تحرير المجتمع ككلّ. المضطهَد (بفتح الهاء) هو الأكثر أهلية لقيادة مشروع التحرير، وتحريره ليس فقط تحريراً للمضطهِد (بكسر الهاء) أيضاً، بل للمجتمع ككل». وقد استعدت هذه الفقرة كاملة لأنها، من وجهة نظري، تمثّل جوهر مقالتَيْ دعنا في الرد علي. وسنترجم ما يقوله دعنا إلى لغة صريحة لا تمويه فيها: (1) حزب الله هو، في الأخير، مشروع تحرير الطائفة الشيعية اللبنانية من الإضطهاد الذي لحق بها من النظام اللبناني المرتكز على تحالف الكمبرادور المسيحي والسنّي. وقبل حزب الله، فشلت الحركات التحررية السابقة، من القوميين والشيوعيين والمنظمات الفلسطينية، عن إدراك هذه الحاجة الاجتماعية ـ السياسية المشروعة فعلاً. وهنا، نتفق مع الدكتور دعنا، ونستذكر أن أول شرارة وعي بهذه الحاجة أطلقها الإمام موسى الصدر، مستنيرةً واجتماعيةً وإنسانيةً ومقاومة، ثم انحرفت إلى الميلشياوية والكمبرادورية، بعده، في حركة أمل؛ ما أطلق الدعوة مجدداً، من دون التنوير الصدري، ولكن بفعالية ونجاح، على أيدي حزب الله، في نزعة سلفية أولاً، كان لا بد منها لإلغاء التعدد السياسي

لقوى المقاومة المسلحة في الجنوب، انتقالاً لتأسيس مقاومة مؤسسية موحدة زاوجت، بروح وثّابة، بين تحرير الطائفة وتحرير الجنوب، وبالتالي تمكين الطائفة من إنشاء حكم ذاتي فعلي في مناطقها، من الجنوب إلى الضاحية. ومن المفهوم أن الحفاظ على هذا الوضع، لا يمكن استمراره من دون دمجه في تطوير المقاومة ضد إسرائيل إلى أيديولوجية كاملة، من شأنها الحفاظ على شرعية سلاح الطائفة وضمان كيانها الذاتي. وقد تطابق هذا المنحى مع الاستراتيجية القومية السورية للقتال خارج الأسوار، ومع الاستراتيجية الإقليمية الإيرانية، في محورها المعادي لإسرائيل.

أسير، هنا، في ملاحظة الدكتور دعنا السوسيولوجية حتى منتهاها وتعقيدات صيرورتها المحلية والإقليمية. ونحن، إذا لم نسر بالتحليل ذاك حتى منتهاه، فسنقع في منزلق مذهبي يفسر المقاومة بالتشيّع، أو نقع في طمس تاريخ عملية احتكار حزب الله للمقاومة اللبنانية، بما اشتمل عليه ذلك التاريخ المسكوت عنه (غير المدروس حتى الآن.)

وفي نموذج بنيوي وظيفي للتحليل، يتجاهل الفروقات النوعية (الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية) بين الطبقات والعصبيّات، ويحلُّها محل بعضها بعضاً على نحو إجرائي كمّي مرهون باللحظة السياسية، ولا يرتهن للميدان السياسي، الذي هو، في النهاية، ميدان الصراعات الاجتماعية. «يستورد» الدكتور دعنا المقولة الماركسية التي ترى أن الطبقة العاملة، بتحررها، تحرِّر المجتمعَ

كلَّه، ويوظّفها بالقول إن الطائفة الشيعية اللبنانية، بتحرِّرها، تحرِّر المجتمعَ اللبنانيَّ كلَّه. ولا أريد أن أدخل، هنا، في سجالٍ نظري مع هذه المقولة الوظيفية غير المنتجة معرفياً، بل أكتفي بالتذكير بأن تحرر الطائفة الشيعية اللبنانية ـ وقد تم، جزئياً، على أيدي حزب الله، وفي قتال مع عدو وطني لا في قتال داخلي، ما يضاعف شرعيّته ـ لم ينته إلى تحرير المجتمع اللبناني كله، ولم يطرح هذا الهدف أصلاً. بالعكس! فهو، في خطاب النصر لسنة 2006، تقدّم بعرض صريح للنظام اللبناني للإبقاء عليه ودعمه والاندماج النهائي فيه على قاعدتين: دولة قوية موحدة (للطوائف) عادلة (بينها) ولا يلغي أحدها الآخر؛ والتعايش بين المقاومة (سرّ قوة الطائفة الشيعية) والكمبرادورية (سر قوة كانتون الطائفة السنية وحلفائها).

ويستنتج الدكتور دعنا، المضمون الثوري لنهج حزب الله، ما يسميه «خطاب العنكبوت». فعنده أن استخدام نصرالله، لتعبير قرآني أدبي في وصف إسرائيل بأنها «أوهن من بيت العنكبوت»، هو «مفهوم» ثوري محلي أصيل مستمد من الإسلام. ومن الواضح أننا، هنا، بصدد تعبير أدبي، كالتعبير الأدبي الذي استخدمه ماو تسي تونغ في وصف الإمبريالية بأنها «نمر من ورق»، لا بصدد مفهوم فكري أو سياسي. ويكتظ القرآن بالتعابير الوصفية والحكم الأدبية التي يمكن استخدامها في جميع الخطابات الفكرية والسياسية. وأذكر، مثلاً، أن أحد ضباط الاستخبارات كان يفتتح تعذيبي في سنة 1977 بالقول «بسم الله الرحمن الرحيم. وما ظلمناهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون. صدق الله العظيم»!! إن

استخدام التعبيرات الأدبية القرآنية، في أي خطاب، لا يشير بالضرورة إلى أصالة فكرية ولا إلى مفهوم نظري. فلنضع ذلك إذاً جانباً، فهو مما لا يعتدّ به لاستنتاج أي شيء عن تظهير مفهوم ثوري إسلامي، مهما كان الاستخدام المعني بارعاً في استخدام الآيات القرآنية. أما الاستناد إلى مواقف شخصيات مهمة من تاريخ الإسلام، ولكنها من خط مذهبي واحد، لا يُعتدّ به لانتاج أصالة ثورية إسلامية، إلا في مجال التحفيز، لا في مجال النظرية؛

أولاً، لأن النظرية الثورية في عصر الرأسمالية هي، فقط، تلك التي تمثّل قطيعة منهجية مع الرأسمالية، أي الماركسية. وليس في القرآن، نظرية اقتصادية ـ اجتماعية بالأساس، لكي نستطيع أن نستنتج منه نظرية ثورية في عصر الرأسمالية. وفي ما يتصل بالموقف الاجتماعي، ترك لنا النص القرآني نزعتين جُمعتا معاً في سورة التوبة، ونظن أنهما متباعدتان زمنيا، وهما:

(1) النزعة المسيحية ـ الشيوعية، كما في التوبة (35): «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.» ولا تنفع كل التفسيرات الرأسمالية اللاحقة في التخفيف من شيوعية هذه الآية؛ فالضمير في «ينفقونها» عائد عليها، أي على الثروة جميعها، لا على بعض منها، كما حاول الكثيرون أن يلووا عنقَها، وإنفاقها في سبيل الله، لا يمكن تأويله على الاستثمار في مشروع خاص؛

فسبيل الله، من جهة، هو سبيل المطلق العام الكوني، كما أن الاستثمار الخاص، من جهة أخرى، مآله المزيد من الكنز، فالمزيد إذاً من نار جهنم.

(2) النزعة اليهودية ـ التجارية، كما في التوبة (103): «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم.» وتسمح هذه الآية بالكنز والاستثمار مقابل الزكاة تصدقاً على الفقراء في تأسيس لمفهوم العمل الخيري، بديلاً من العدالة الاجتماعية الشيوعية. وقد ظل الصراع، على المستوى الاجتماعي ـ التاريخي، قائماً ومستمراً بين معارضة تتمسك بتحريم الكنز وارستقراطيون وتجار سلطات يتمسكون بآية الصدقة، ويعتبرونها قد نسخت ما قبلها. ولا يتسع المجال هنا لعرض تاريخ ذلك الصراع. على أن نسخ آية لا يخرجها من الوحي. ولا يمكن أن يشير (أي النسخ) من وجهة نظر إيمانية، إلى أن الوحي قد أخطأ. ولكنه يشير إلى قبول ضغوط اجتماعية وسياسية راهنة في زمن الوحي. فهي ليست مطلقة إذاً. والنظرة التوحيدية للنص القرآني هي وحدها الكفيلة ببناء فقه التحرير، بحيث يجري، من بين مسائل أخرى، التمسك بآية الكنز على المستوى العام، فلا تكون ثروة ولا استثمار إلا في سبيل الله، أي عبر الدولة لمصلحة المجتمع كله، بينما تكون الزكاة للعاملين بأجر والفلاحين والمهنيين والحرفيين ممن يملكون مزارعهم ومؤسساتهم الصغيرة شرط قيامهم بالعمل المباشر فيها. وهذا ليس سوى مثال عما يمكن أن يذهب إليه مثقف وطني يريد الارتكاز على الإسلام من أجل نظرية ثورية محلية.

وثانياً، لأن امتلاك التاريخ العربي ـ الإسلامي، لا يمكن أن يتم، ثورياً، من خلال الإنحياز المذهبي، وإنما من خلال امتلاك المشهد الكلي للتاريخ الاجتماعي السياسي، بصراعاته وإنجازاته واخفاقاته ورموزه، من منظور قومي محايد مذهبياً، يقرأ رجل الدولة الألمعي معاوية بن أبي سفيان، و رجل الثورة الشهيد الحسين بن علي، و رجال المعارضة الاجتماعية الإسلامية كأبي ذر الغفاري، أو الشيوعية الإسلامية كحزب القرامطة، في كلٍّ واحد/ متعدد/ متصارع داخلياً. وأصالة التاريخ وغناه ومعناه تكمن كلها في تعدديته. وتعدديته هي ضمان وحدته، وتالياً وحدة الوجدان التاريخي للأمة في حاضرها السياسي.

وفي نظرتنا الشمولية لتاريخ التأسيس العربي الإسلامي، سنرى، بلا تحيّز، أن ذلك التسيّس اكتمل في صراع أربعة خطوط، خط الدولة (عمر ومعاوية وهشام بن عبد الملك وأبو جعفر المنصور والرشيد الخ)، وخط المعارضة السياسية (علي والحسين الخ)، وخط المعارضة الاجتماعية والشيوعية (أبو ذر وسلمان الفارسي والقرامطة الخ)، وخط المعارضة الثقافية (المعتزلة والفلاسفة والصوفية الكبار). وتكمن أصالة تملّك التراث في الحاضر في القدرة المنهجية اللامذهبية في رؤية التكوين العربي ـ الإسلامي في وحدته الصراعية هذه، لا في التحزب لبعضه واستنطاقه واستجلابه للحاضر. ففي ذلك تفتيت للتاريخ وللحاضر والمستقبل.

حول احتجاجات 2015 في لبنان

من الصعب وصف الاحتجاجات التي يشهدها لبنان (2015)، بوساطة منظور سياسي مسبق؛ فلا هي ثورة برتقالية مشبوهة ولا هي تحرك اجتماعي أصيل، تبدو لعبة، ولكنها تنذر باحتمالات جدية؛ بالأساس، فإن التردي الحاصل في الخدمات في البلد، لا نظير له إلا في العراق الذي يشهد، هو الآخر، احتجاجات شعبية تشكو، رئيسياً، من انهيار الخدمات العامة. قد يتعايش الجمهور ـ وهو ما يحدث كثيراً ـ مع الاستغلال والفقر والغلاء والتهميش والشقاء، لكن من الصعب أن يواصل المرء، حياته اليومية، بصورة اعتيادية، وسط تلال القمامة، ومن دون انتظام التيار الكهربائي وماء نظيف.

وحين ينفجر الغضب الشعبي على اليوميّ الخانق، تُطرَح القضايا الأخرى المرتبطة: الفساد، وغياب المسؤولية، والاقتصاد النيوليبرالي المتوحّش، المعطّل للقوى العاملة، بطالةً وتهجيراً؛ فلا تكمن مأساة الشباب، فقط، في عدم كفاية فرص العمل، بل، الأهمّ، أن أغلبية العاملين يحصلون على رواتبهم على أساس علاقات الانتاج المحلية، بالغة التشوّه، بينما يشترون السلع

والخدمات، بالأسعار المعولَمة، بلا أي حماية. وهذه المفارقة، لا حل لها، فردياً، إلا بالهجرة أو بالفساد الصغير أو بالاحتماء بمساعدات الطائفة أو العشيرة الخ. النيوليبرالية تُنتج الطائفية والعشائرية والاستزلام، وأسوأ نتائجها الاكتئاب وكراهية الوطن والوطنية والإغراق في الفردية. وليس لبنان فريداً في هذه الكارثة العربية، لكنه يتميّز، بما يزيد مما الطينَ بِلَّةً فيه؛ أي انهيار الخدمات العامة، إلى درجة محاصرة البشر بالقمامة.

في هذه اللحظة الضاغطة، يتكوّن، لدى الجَمْع المحتج، شعورٌ معاكسٌ للسياسة، شعورُ لاسياسي، كما شهدنا في ما سُمي «بالربيع العربي»؛ فالممارسة السياسية، تحدث، في النهاية، في سياق منظّم يقوم على فعاليةٍ قياديةٍ لأحزاب وبرامج، تمثّل قوى اجتماعية محددة، لها مصالح محددة، يجري الصراع الاجتماعي - السياسي حولها. وفي غياب هذا السياق، تبدو الاحتجاجات كلعبة، خصوصاً وأن تردي البيئة عادلٌ في آثاره؛ فالفقراء والأغنياء يتنفسون، في النهاية، الهواء نفسه.

عند هذا الحد، يكون الحراك الشعبي، متعدد الأصول الاجتماعية، مفهوماً و«بريئا»؛ لكن، حالما تحتشد الجموع غير المنظمة في الساحات، تتحوّل المجموعات الثانوية، مهما كانت صغيرة العدد وضعيفة التأثير عادة، إلى قوى فاعلة. هذه المجموعات، المتكاثرة هندسياً، هي تعبير عن نثار اجتماعي. وهي، من الناحية السياسية، ثلاثة: تجمعات «يسارية» سابقة، وشلل شبابية متمردة، ومنظمات مجتمع مدني مشبوهة.

على صعيد آخر، هناك التدخلات السياسية؛ بعضها يريد إصلاح النظام السياسي بقانون انتخابات نسبي يعيد تشكيل النخبة السياسية، وبعضها يريد انتزاع حقوق سياسية مسلوبة لطائفة ما، أي، عملياً، تصحيح نسب المحاصصة الطائفية، وبعضها يعبّر عن طموحات عَلمانية، وبعضها عن طموحات اجتماعية وتنموية ديموقراطية، وبعضها - وهذا ما يهمنا هنا - يستثمر في الغضب الشعبي لضرب هيبة المقدس الوطني: المقاومة والقوات المسلحة. وهاتان هما المؤسستان الوحيدتان اللتان تعبران عن وجود هيكل الدولة الوطنية في لبنان؛ هكذا نعود إلى مسلسل " الربيع العربي» المعروف.

لا تزال القوى التي تستثمر في الحراك الشعبي لتوجيهه ضد المقاومة، ضعيفة التأثير، لكنها تملك الموارد المالية والإعلامية والتنظيمية الكافية، لتحويل الحراك الشعبي عائم الاتجاه، إلى «ربيع لبناني». لا ينبغي انتظار حدوث هذا الاحتمال، وستكون مواجهته بالقوة، كارثة. في الواقع، لم يعد حزب الله قادراً على تحييد نفسه عن الصراع الاجتماعي، أي عن الاتجاه يساراً نحو فقه التحرير (على خطى لاهوت التحرير في أميركا اللاتينية).

يحتجّ أصدقاء للحزب بالقول إن المهمات الاجتماعية لا تقع على عاتق المقاومة، بل على عاتقِ قوى اليسار. وهو ما يعني، واقعياً، احتمال تسليم الحراك الشعبي لقوى مشبوهة أو فوضوية أو لامسؤولة أو ضعيفة الإمكانات، والسماح بثغرة داخلية ينفذ منها

أعداء المقاومة إلى حصونها؛ فاليسار وحده، لا يملك، لأسفي، القدرة على الهيمنة على الحركة الشعبية، وقيادتها؛ والحل الممكن، تالياً، هو تشكيلُ جبهة وطنية ـ اجتماعية تجمع الحزب مع الشيوعيين والقوميين الاجتماعيين والتيارات التقدمية والقومية والتجمعات الشعبية الشبابية والشخصيات الوطنية المستقلة والمثقفين الملتزمين بقضايا الدولة والمجتمع؛ جبهة لا تكرر 8 آذار حتماً، ولا ترتهن لمطالب فئوية، ولا تشترط سوى التوافق على برنامج ديموقراطي اجتماعي بيئي تنموي ديموقراطي، يكسر الاصطفافات الطائفية.

حزب الله، وحده، القادر، مرحلياً، على إقامة هكذا جبهة؛ لكنه يرتكس عنها؛ على السطح، جرّاء معوّقات سياسية، وفي العمق، جراء تأخُّره الأيديولوجي في المسألة الاجتماعية.

هل هناك مشروع شيعي؟

(1)

يأنف الماركسيون المثاليون من القراءة الخلدونية للتاريخ العربي المعاصر، ولكن هذه القراءة تفرض نفسها بالمعطيات التي لا يمكن تجاهلها؛ مَن ينكر أن النهضة العربية الأولى من الربع الأخير للقرن التاسع عشر حتى اربعينيات القرن العشرين، ارتبطت بالمسيحيين العرب؛ بصعودهم الاجتماعي والثقافي، واحتياجاتهم العيانية إلى التحرّر من سيطرة نظام الملل العثماني، والدفع بفكرة العروبة كإطار يسمح لهم بالاندماج على أساس قومي لاديني. وهو نهج تنامى من مستوى النشاط الثقافي والأدبي، إلى مستوى النشاط الفكري ـ السياسي ـ التنظيمي.

مَن كان أبرز زعماء المشرق، في تلك المرحلة، سوى أنطون سعاده وميشيل عفلق وفهد ـ مؤسس الشيوعية العراقية؟ لم يكن كل ذلك «مؤامرة مسيحية»، وإنما حراك مشرقي عربي أصيل نهضت به الجماعة الاجتماعية الثقافية الأكثر تقدماً حين ذاك.

مع عبدالناصر، اندفعت الكتلة السنية إلى صدارة المشهد العربي؛ اكتشفت ذاتها في الانخراط في حركة قومية نصف

علمانية، متصالحة مع إسلام وسطي، مضاد للإخوان المسلمين والرجعية الوهابية. انتقلت النهضة من المشرق، المتعدد دينياً وثقافياً، إلى مصر المتجانسة التي تحولت إلى مركز قومي؛ أصبح أبطال المرحلة ناصر وبن بله وياسر عرفات ومعمر القذافي وصدام حسين. (حافظ الأسد، برغم أصوله العلوية وفكره التقدمي العلماني، كان «سنيا»، من الناحية السياسية والسيميائية، لكن المخيال المذهبي العربي، لم يقبل باندماجه).

الحركة القومية العربية، ذات المنحى الناصري، عبّرت عن صعود العرب السنّة؛ في عهد ناصر، فقد أقباط مصر ـ من دون أن يُضارّوا ـ دورَهم الفعّال السابق في الحركة الوطنية المصرية. أما الكتلة السنية في سوريا، فقد ذهبت نحو وحدة مع مصر الناصرية، تحرّرها من البعثيين والقوميين السوريين والشيوعيين، المنظمين والفاعلين، سياسياً وثقافياً، والمنطلقين، بصورة رئيسة، من جماعات غير سنية. وفي العراق، وقف ناصر ضد ثورة 1958 الجماهيرية التي أظهرت قوة الكتلة الشيعية ـ الكردية العراقية، المتجهة يساراً؛ لقد ضُربَتْ ثورة 58 ضربات مثابرة، كان طابعها العميق، مذهبياً؛ انتهى الأمر بالتسنّن التدرُّجي لحزب البعث العراقي الذي حكم البلد منذ 1968، وأصبح معادياً، على طول الخط، للبعث العَلماني الحاكم في سوريا. كان صدام حسين يرى الوحدة مع رفاقه السوريين، في عمقها، مسعىً لتصحيح التوازنات بين الكتل الاجتماعية الثقافية في البلدين، ما مثّل، عنده، «خيانة» لسلطة العرب السنّة في العراق، استحق، بسببها، بعثيون

وحدويون، الإعدام جرّاء تورّطهم في «مؤامرة الوحدة» عام 1978. في لبنان، حكمت مليشيات فتح، البلد، بفضل الحاضنة المذهبية التي توفرت لها، وكونت «الكتلة الحرجة» التي التحق بذيلها قوميون ويساريون، إلى حدّ أنهم قاتلوا ضد سوريا الأسد.

القانون الذي حكم، ويحكم صعود الجماعات العربية، هو العداء للوهابية والرجعية والتمسك بالإطار القومي في الداخل، واتباع سياسات تحررية معادية للإمبريالية وإسرائيل. وهكذا، فإن قيام السادات بنقض هذا القانون في كل معادلاته، كان إيذاناً بأفول السنية السياسية، ووقوعها بين براثن الوهابية والأَخْوَنة والتكفير، من جهة، وشبكة الأفكار والعلاقات النيوليبرالية والتبعية للغرب، من جهة أخرى.

رغم ما أحدثته من أصداء مدوّية، فإن الثورة الشيعية الإيرانية، العام 1979، لم تتفاعل عربياً، إلا بالقدر الذي أطلق العنان لقوى الإسلام السياسي السني لأسلمة الحياة السياسية العربية. الظهور الشيعي على المسرح العربي، ارتبط بحزب الله، الذي استطاع أن يصعد، معتمداً على القانون القومي الأساسي لصعود الجماعات الاجتماعية العربية، أعني إطلاقه مقاومة معادية للتحالف الأميركي ـ الإسرائيلي، بدأت تكتسب المزيد من الهيبة السياسية، منذ الثمانينات، ولكن، تحديداً، بعد انتهاء الحرب الأهلية في لبنان. حزب الله الذي أرغم إسرائيل على الانسحاب من الجنوب اللبناني، عام 2000، وهزم العدوان الصهيوني المؤيَّد من الرجعية

العربية، عام 2006، تحوّل، اليوم، إلى قوة إقليمية، تردع الإسرائيليين، وتقاتل في سوريا والعراق. في سوريا، صمدت العَلمانية القومية التعددية في مواجهة الإرهاب الوهابي التكفيري. وفي العراق، وبعد عقد من التخبّط السياسي والغرق في علاقات التبعية للإمبريالية وفي الفساد، استردت المرجعية جماهير الكتلة الشيعية، وأطلقتها في حركة وطنية وحدوية تتجه، ليس فقط إلى هزيمة الإرهابيين، وإنما، أيضاً، إلى إعادة توحيد العراق. وقد تأخرت هذه الخطوة كثيراً، ولا تزال تحتاج إلى التنظير والتأطير.

غير أن أفضل حركات التشيّع السياسي هي تلك الناشطة في البحرين واليمن؛ فالحراك البحريني، رغم أنه يستند إلى كتلة جماهيرية شيعية، فهو يتبنى برنامجاً وطنياً شاملاً لنهضة البحرين، بالوسائل الديموقراطية، ويلحّ على هويته المحلية. أما حركة «أنصار الله» اليمنية، فإن لديها من الوعي الوطني والجرأة والثقة بالذات والتحرر من عقد المذهبية، ما يجعلها تتصرف كحركة وطنية يمنية، من دون الخضوع للحسابات المذهبية ـ كالتي يأخذها حزب الله في لبنان أو القوى الشيعية في العراق ـ وهي، بذلك، تجمع، وستجمع إليها، كل أحرار اليمن، بغض النظر عن الانتماءات المذهبية والقبلية، في معركة التحرر من الهيمنة الخليجية والإرهاب التكفيري.

نحن، إذاً، أمام معطيات المرحلة الثالثة من النهوض العربي، المرحلة الشيعية التي آن الأوان لمناقشة عناصر قوتها وضعفها.

(2)

نظرة سريعة على ميادين الصراع ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية ومنظماتها الإرهابية، كافية، لكي نلاحظ أن الكتل الاجتماعية الجماهيرية التي تخوض هذه الصراعات، هي كتل تنتمي إلى الفضاء الشيعي.

صحيح أنه حيث توجد كتل مسيحية، فإنها تصطفّ في خندق التشيّع السياسي، كما أننا لا نستطيع أن نغمض العين عن أوساط وشخصيات سنية، تقف، أيضاً، في هذا الخندق، لكننا نستطيع القول، بكثير من الدقة، إن الحركات العربية التي تهيمن على خط الصراع التحرري اليوم، وتزوّده بالطاقات البشرية المتدفقة، هي حركات تستند إلى العصبية الشيعية: حزب الله المتحوّل قوة إقليمية مشرقية، والحشد الشعبي العراقي الذي يتبلور سياسياً، ويعيد تأسيس الحركة الوطنية العراقية، والمعارضة البحرينية التي يمكننا القول إنها الحركة الديموقراطية ـ الشعبية الوحيدة في العالم العربي، وأخيراً، لا آخراً، حركة «أنصار الله» اليمنية، القوة البازغة التي ستعيد بناء الخريطة السياسية للجزيرة العربية، ابتداءً من

استقلال اليمن، وصولاً إلى تحرير محافظاته المغتَصبة (نجران وجيزان وعسير)، وتثوير مناطق شرق السعودية، في حراك تاريخي لن يتوقف قبل انهيار المملكة الوهابية، مركز الرجعية العربية، والأم الأولى لجميع الحركات التكفيرية الإرهابية.

أهي مصادفة، أم أنها، كما أسميناها، المرحلة الشيعية من النهضة العربية؟ وهي تستند إلى قانون اجتماعي ثقافي سياسي (خلدونيّ)، اكتشفنا مفاعيله في تحكّم العصبيات الاجتماعية ـ الدينية بمراحل النهضة العربية الحديثة التي هيمنت عليها، أولاً، العصبية المسيحية، ثم العصبية السنية، ثم، الآن، العصبية الشيعية. وإذا كان لتشكّل كل من هذه العصبيات، أساس اقتصادي اجتماعي، فإن ممارستها لدورها التاريخي مرتبط بتكوّنها الثقافي؛ العصبية المسيحية هيمنت من خلال الأفكار الحديثة (القومية العلمانية، اليسارية)، والعصبية السنية هيمنت من خلال ربط القومية بالإسلام المعتدل، أما العصبية الشيعية، فهي تطرح نفسها كهيمنة شيعية. وهذا هو النقص الأساسي الذي يعتور تقدمها، ويسمح للإمبريالية والرجعية العربية بالتحريض المذهبي الصريح ضدها. صحيح أن الحركات الشيعية تلتزم بالعنصر الأساسي من قانون الحراك القومي، أي تصديها للإمبريالية والصهيونية والرجعية التكفيرية، إلا أنها لم تكتشف، بعد، الخطاب الأيديولوجي الملائم لهيمنتها؛ صحيح أنها أوجدت إطاراً سياسياً للتفاهم التاريخي مع المسيحيين، إلا أن مشكلتها الحقيقية تظل في افتقارها إلى خطاب ملائم لاستيعاب السنّة. ولعل مردّ ذلك إلى أنها لم تتنبه، بعدُ، إلى

العنصر الأهم في قانون الحراك القومي، أعني القومية. هنا، تبرز كل التباسات العلاقة مع إيران.

التشيع الإيراني هو، في التحليل الأخير، أيديولوجيا لنهوض الدولة القومية؛ فلا يوجد تعارض جوهري بين القومي والديني في إيران، (كذلك الحال، ويا للمفارقة، بالنسبة للإسلام التركي). في المقابل، فإن للتناقض بين القومي والإسلاميّ عند العرب، تاريخاً قديماً مستمرّاً؛ فقد تأسست الدولة الأموية على عصبية عربية لا إسلامية، بينما تأسست الثورة العباسية ضدها، على اجتماع العصبيات الإسلامية غير العربية. وكان الخطاب الإسلامي، في منحاه السني المتعصب، هو الذي مكّن أتراكاً وأكراداً وقوقازيين، مماليك وعثمانيين، من التسيّد على العرب قروناً، ضاع خلالها البعد القومي العربي، وتجمدت اللغة وانحط الفكر وتراجعت الفعالية الثقافية الحضارية عند العرب، حتى استولدت الكتلة المسيحية السورية، في مواجهة العثمانيين، العروبةَ العلمانية؛ فتأسس، بذلك، سياق لا يمكن لأي عصبية عربية القفز عنه، لكن بقيت المشكلة القائمة في الانفصال بين القومي والإسلاميّ، مشكلة سعت الناصرية لحلّها من خلال التصالح بين القومية ونسخة معتدلة من الإسلام السني، تفسخت مع انهيار النظام الناصري في عهد السادات، ووطدت لمرحلة ثقيلة سوداء من الإسلام الوهابي المرتبط بالإمبريالية، والحليف الموضوعي للصهيونية.

كيف يمكن للحركات الشيعية العربية الصاعدة أن تحل تلك

المشكلة؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي يواجهها، والذي يفرض نفسه عليها مع كل تقدّم تحرزه؛ إنها تحتاج، اليوم، كضرورة تاريخية، إلى خطاب قومي جامع، لا يلحظ فقط التمييز بين التشيع الإيراني والتشيّع العربي، بل يتوصّل إلى أطروحة قومية متكاملة. الانفصال عن إيران، لا يعني، إطلاقاً، الكفّ عن التحالف الوثيق مع هذه القوة الإقليمية الكبرى، وإنما الكفّ عن الالتباس بين التبعية من منطلق مذهبي، والتحالف على أساس قومي.

الصعود الشيعي العربي شرعيٌ، من الناحية التاريخية، كلياً، ولا يستوجب تقديم أي اعتذار، غير أنه ملزوز الآن إلى استكمال عناصره الأيديولوجية اللازمة، ومنها، خصوصاً، الأطروحة القومية واستبصار النموذج الدولتي العلماني الخاص ببلادنا؛ سوريا، بغض النظر عن الشوائب، هي النموذج الممكن.

(3)

هل هنالك مشروعٌ شيعيٌ؟

ينطوي هذا السؤال على القول بوجود مركز يفكّر ويقرّر الاستراتيجية والتكتيكات على أساس مذهبي. هذا المركز، كما يتخيّل الكثيرون، يتمثل في الجمهورية الإسلامية في إيران.

غير أن هذه المقاربة زائفة من أساسها. ولا أعني، بذلك، أنها غير صحيحة. فمن غير الممكن نفي وجود استراتيجية إقليمية إيرانية تلحظ الإفادة من قوى التشيّع العربي؛ إنما أعني أن التشيّع العربي يعبّر عن دينامية اجتماعية تاريخية موضوعية، وليس «مؤامرة» يتم تصنيعها لدى الأجهزة الإيرانية.

علينا أن نلاحظ، هنا، بوضوح شديد، أن الدينامية الوحيدة التي استمرت، فاعلةً، في التاريخ العربي ـ الإسلاميّ، هي الدينامية الشيعية ـ بكل مدارسها وتفرّعاتها ـ وقد مرت، حتى الآن، في أربع مراحل؛ بدأت الأولى، كتعبير عن إسلام عراقي يستوعب التقاليد الدينية والثقافية المتراكمة في ما بين النهرين، ويدفع بتجديد

الحضور العراقي في التاريخ؛ قابلته، في الشام، دولة وثنية - مسيحية هي «الخلافة» الأموية التي انتصرت لسببين، أولهما استنادها إلى العصبية العربية، وثانيهما الدمج بين قوى هذه العصبية والتراث والكتل الاجتماعية لما قبل الإسلام الذي كان لا يزال يتشكّل، بالمعنى التاريخي، في سياق شيعي بالذات، ما سمح بولادة المرحلة الثانية من حركة التشيّع العربي، في ظل الخلافة العباسية، وبالصراع معها. إن كل التاريخ العربي اللاحق، حتى الأيوبيين (فالمماليك فالعثمانيين)، كان يتحرّك بالدينامية الشيعية، وما تناسل منها من مذاهب وحركات محافظة وثورية. واستوعبت هذه الدينامية، طوال أربعة قرون (الثامن - الحادي عشر الميلادي) استمرارية تراث المنطقة القديم - المتجدد، وعبّرت عن مصالح الفلاحين والكادحين والمثقفين، كذلك عن المنحى العربي والتشكّل الوطني المحلي في مواجهة الدول الغاصبة المتغلّبة. شهدت هذه القرون، المضطربة بالسجالات والانتفاضات والحيوية الثقافية، ولادة إمارات شيعية؛ كالإمارة الحمدانية المقاتلة في حلب - وارتكزت على خطاب القتال ضد الروم، ما يذكّرنا اليوم بخطاب حزب الله في المقاومة - والجمهورية القرمطية الاشتراكية في البحرين الكبرى. إلا أن التعبير الأهم عن الدينامية الشيعية تمثّل في الخلافة الفاطمية التي بانحلالها انتهى التاريخ العربي، لصالح المتغلبين من أكراد ومماليك وعثمانيين، ممن استطاعوا، بالعنف الدموي، تجميد الحياة الفكرية والسياسية العربية، وفرض نموذج مذهبي واحد، أطّره ابن تيمية في أيديولوجية سلطوية ما تزال

مصدراً للسلطات المتغلّبة والحركات التي تعبّر عن تقاليد الغزو والنهب والقتل لصحارى الجزيرة العربية. وكانت ديناميات الحداثة العربية، في القرن العشرين، جديرة بوضع حدّ نهائي لتلك الأيديولوجية، لولا مصادفة النفط التي سمحت للقوى القديمة، الآتية من كهوف التاريخ في نجد، أن تحظى بالمال اللازم والدعم الغربي والثقل السياسي، مما مكّنها من إحياء نموذج ديني ما زال فاعلاً في دول وكتل جماهيرية وحركات، من السعودية وقطر إلى الإخوان المسلمين إلى «النصرة» و«داعش»، ومن لفّ لفهما.

يلاحظ الباحث العراقي، عبد الأمير الركابي، أن الدينامية الشيعية العراقية الحديثة، هي التي أطلقت المرحلة الشيعية الثالثة التي لا تشكّل استمراراً للتشيّع القديم، وإنما هي تعبير عن تشكّل اجتماعي وطني عراقي حديث، استمر لأكثر من قرنين (الثامن والتاسع عشر الميلاديين)، وانقطع بعد تأسيس الدولة العراقية المفروضة من الخارج، في عام 1921. ويؤكد الركابي على أمرين، الأول، أن الدينامية الشيعية الحديثة في العراق، «ترافقت مع تحوّلات داخل النجف - المدينة الدولة المقدسة الحديثة - تلاءمت مع بنية العشيرة العراقية الجنوبية، وسماتها القريبة من الشيوع والديموقراطية الفطرية. ومن هنا انبثقت آليات ممارسة «نظام الاجتهاد» و«التقليد» و«الحوزة» التي هي مبتدعات «دولة - مدينة»، بمقاييس ومفاعيل لا تنتمي للإكراهية السلطوية، ولا لاحتكار العنف والسلاح؛ ف «التقليد» هو وسيلة ربط القبيلة بالمراجع،

عقدياً، و«الاجتهاد» نظام أقرب إلى «النظام الداخلي العشيري، ولأشكال تداول المشيخة والنفوذ فيها»، والثاني أن التقاليد الشيعية الحديثة فاضت من العراق إلى خارجه، و« ليس ما يقال، من دون بيّنة ولا تدقيق، عن الغلبة الصفوية؛ فإيران، من قم الى مشهد، أخذت بنظام الاجتهاد الشيعي العراقي، لا بنظام السلطوية الصفوي، الذي زال ولم تعد له قواعد تمارس».

الدينامية الشيعية، اليوم، تدخل طورها الرابع. وهي تدخله كتحقُّق نهائي متأخر للإسلام، بوصفه أيديولوجية وطنية - ديموقراطية، ستنجز انفصالاً فكرياً - وليس، بالضرورة، سياسياً - عن التشيّع الإيراني. نلاحظ، هنا، أن نظام ولاية الفقيه وفرض نموذج شيعي - وهابي محافظ على الحياة الاجتماعية، ليس لهما أي امكانية تاريخية في المجتمعات العربية التي يلعب فيها التشيّع السياسي دوراً أساسياً. فحزب الله، على فائض قوته في لبنان، يظل مقيداً بالتعددية السياسية والثقافية في هذا البلد، كما أن الوجود الكثيف لمقاتليه والحرس الثوري الإيراني في سوريا، لا يمكنه أن يغيّر نظامها العلماني القائم على التعددية الدينية والثقافية. وفي اليمن، لا علاقة للزيدية المنتصرة بالأيديولوجية الدينية الإيرانية، وتقدّم حركة «أنصار الله» نفسها بخطاب مبني على الشراكة الوطنية. وفي البحرين، اكتسب التشيّع السياسي طابعاً ديموقراطياً صريحاً. على أن مركز الثقل الشيعي العربي، يظل في العراق، ومآلات التشيّع العراقي هي، بالذات، التي سوف تقرر مستقبل المرحلة الشيعية للنهضة العربية؛ أنحو العلمانية الوطنية والتحرر والوحدة

المشرقية، أم نحو التفسّخ الاجتماعي والسياسي والثقافي لانحطاط الاسلام السياسي الشيعي؟

أفضل ما في الفضاء الشيعي، تعدديته التي بلا حدود. ولذلك، فإن المساعي التي تُبذَل لفرض الواحدية الإثني عشرية في صيغتها الإيرانية، على الكتل المنتسبة للفضاء الشيعي العام، سيحول الدينامية الشيعية العربية من دينامية قومية مدنية مفتوحة على نهوض تحرري إلى تشيّع له مضمون سلفي.

23 و25 و27 آذار 2015

«أفكار شيطانية»

صدمني محمد فضل الله («الأخبار»، الجمعة 24 تموز 2015) باقتراحه، صراحة، برنامجاً إمبريالياً لإيران في المرحلة المقبلة؛ إنه يتطلّع إلى «تفكيك الغرب وإعادة تركيبه»؛ اللعب بالهويات، وتمزيق المجتمعات، والاستثمار في الحروب الأهلية... إلى آخره، ما يدفع المرء إلى فرك عينيه، لكي يتأكد من أن ما يقرأه هو فعلاً المكتوب، وأنه ليس مقاربة هزلية.

من الواضح أن نشوة فضل الله، الناجمة عن تمكّن إيران من التوصل إلى تسوية متوازنة حول برنامجها النووي، قد أصابته بالدوار، فسعى إلى منتجات الفكر الإمبريالي الرجعي المعادي للإنسانية والمجتمعات البشرية، لكي يقترح الذهاب من التفاوض على النووي إلى «التفاوض على العالم».

يقول فضل الله، ملخّصاً مقاله بدقة: «في أية مفاوضات مستقبلية، ستُقايض إيران على مكتسبات حول العالم، خارج الشرق الأوسط. رؤية إيران الجيو ـ سياسية للعالم ستَنتظم وفق مقاربة جديدة، فلسفية ـ تكنولوجية: برنامج الفضاء هو

الاستراتيجية المقبلة بعد البرنامج النووي، الاستثمار في تفكيكٍ ما بعد حداثي للهويات هو المنهج».

لن أتوقف طويلاً عند الأوهام، فإيران، على رغم ما حققته من إنجازات معترف بها، لا تزال دولة عالمثالثية، لم تستطع، حتى الآن، إنجاز منظومة إنتاجية قومية مستقلة، قادرة على المنافسة دولياً. وليس أمامها، في الواقع، سوى خيارين هما:

(1) التعاون مع مجموعة «البريكس» للتوسع الاقتصادي، والانضمام إلى منظمة «شانغهاي» لتحسين قدراتها الدفاعية، وضمان أمنها القومي واستقلالها، واستقلال سياساتها الخارجية المعادية للإمبريالية،

(2) الانخراط في منظومة الرأسمالية الإمبريالية. وهو انخراط يسمح لبلد في حجم إيران بالنموّ، ولكن من موقع تبعي يفرض شروطه، لا على السياسات الخارجية فقط، ولكن، أيضاً، على السياسات الداخلية، من حيث نمط النمو وتوزيع الثروة... الخ.

لا تزال الصين، بجبروتها الاقتصادي والعلمي والدفاعي والديموغرافي، غير قادرة، موضوعياً، على فك الارتباط مع الرأسمالية الإمبريالية. وهي تنخرط، مع روسيا والبرازيل والهند وجنوب أفريقيا في مجموعة «البريكس»، التي تسعى، على مدى زمني غير ممكن التحديد بعد، إلى إنشاء بنى تجارية ومالية وتقنية تسمح لها بالخروج من المنظومة الرأسمالية الإمبريالية؛ فما بالك بإيران؟

على كل حال، ليس ما يهمّنا هنا هو معالجة أوهام فضل الله، بل الأفكار الشيطانية التي يقترحها على الإيرانيين، استناداً إلى منهج «ما بعد الحداثة»، الاستعماري الرجعي؛ فما بعد الحداثة هو منهج لا يتجاوز الحداثة (منظومة القيم الإنسانية والتقدمية والديموقراطية الاجتماعية والعلمانية وتعزيز الإنتاجية وتوظيف القوى المنتجة في منظومة اقتصادية ـ اجتماعية مترابطة) وإنما يعمل ضدها. وما بعد الحداثة، منهج يمكن، من خلاله، التوصّل إلى منجزات في الثقافات والمجتمعات؛ ولكن نقل هذا المنهج، من قاعات الجامعات إلى دوائر الاستخبارات، أي استخدامه لأغراض توسعية، وتحويل الثقافات والمجتمعات إلى مختبرات للتجارب الاستعمارية، هو عمل عدواني همجي فظيع، لا يقلّ همجية عن المشروع التكفيري، ولكنه يحل الخطط الثقافية الاستخبارية، محل المتفجرات، وتغيير ما في الرؤوس، بدلاً من قطعها. إنه يستهدف، في الواقع، تخريب العالم. يقول الكاتب: «نظراً لمحدودية الموارد، ستَبذل إيران جهداً أكبر في رسم خريطة للتوترات التي يمكن الاستثمار فيها بفعالية أكبر وتكاليف أقل». وسنكتشف أن ما يفكر فيه الكاتب، ليس سوى التأسيس للحروب الأهلية، الثقافية ـ الدينية، على مستوى العالم.

انظروا، تالياً، بعض اقتراحات فضل الله على الإيرانيين:

ـ ضمان أمن إسرائيل مقابل الحصول على تقنيات فضائية؛ يقول الكاتب «يمكن لإيران مقايضة أمن إسرائيل (أو غيرها)

بمكتسبات خارج الشرق الأوسط؛ كمثال، المقايضة على الأسهم أو الهيكل الإداري لشركة تَعمل في حقل الفضاء ومتمركزة في الولايات المتحدة أو شرق آسيا». ومن الواضح أنه يمكن إعادة قراءة الفقرة السابقة، كالتالي: «ضمان أمن إسرائيل مقابل الحصول على تقنيات فضائية...».

ـ توطين اللاجئين الفلسطينيين في سورينام في أميركا الجنوبية لإنشاء دولة مسلمة في القارة، تحقق المصالح الإيرانية. (يتمثّل الكاتب، هنا، نموذج الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإنشاء دولة إسرائيل). يقول الكاتب: «ملف اللاجئين الفلسطينيين يجب أن يُثمَّر بمكتسبات استراتيجية. سورينام في أميركا الجنوبية تعدّ خارج النسيج العرقي الثقافي للقارة الأميركية عموماً. هم يتكلمون الهولندية، وتعود جذورهم في الغالب إلى جنوب شرقي آسيا، وهو ما جعل عشرين في المئة من السكان مسلمين. طبعاً، عدم وجود بلد مسلم في قارة كبيرة كأميركا هو خلل استراتيجي بالمعايير كافة. إذا نُقِل اللاجئون الفلسطينيون إلى هناك سيكون ذلك استثماراً استراتيجياً في القارة الأميركية. بالمناسبة، سورينام بلد غني بالموارد، ويقع على حدود غيانا الفرنسية، مركز إطلاق برامج الفضاء الأوروبية».

ـ تسليح منظمات تابعة. يقترح الكاتب ما يلي: «يمكن لإيران تمويل وتسليح إحدى مجموعات الدفاع الذاتي المكسيكية (المحبوبة من قِبَل الشعب) لمواجهة عصابات المخدرات، بحيث

يصبح لديها حليف مسلّح على حدود الولايات المتحدة ذا شرعية شعبية، نوع من حزب الله في المكسيك»! ليست القضية المدعومة مهمة أو شرعية، بحد ذاتها، عند فضل الله، ولكنه يبحث، كأي مثقف استعماري، عن واجهات للتدخل في البلدان الأخرى.

ـ التأسيس لحرب أهلية مذهبية في فرنسا. يقترح الكاتب: «في فرنسا، مساعي إيران لتشييع المغاربة لم تجرِ بالسهولة المفترَضة؛ المقاربة التبشيرية محدودة الفعالية إذا لم تَقترن بمشروع سياسي يَستثمر في التاريخ والثقافة الفرنسيتَين. يمكن دعوة الكنيسة الإنجيلية البرازيلية إلى تحويل المغاربة في فرنسا إلى البروتستانتية؛ لن يؤدي ذلك إلى دينامية مغاربية مختلفة داخل فرنسا فحسب، بل أيضاً سيُعيد إحياء الهوغونوت الفرنسيين «Huguenot» الذين احتلّوا الجزء الأكبر من جنوب فرنسا، وبالتالي إحياء التوتُّر التاريخي بين شمال وجنوب فرنسا».

ـ دعم تهويد الصين لتقسيم العالم الصناعي. يقول الكاتب: «بما أن الصينيين باتوا معجبين باليهود، فإن نشر اليهودية في الصين من خلال السابوتنيك (كونهم متحولين إلى اليهودية بدورهم) سيمكِّن الصين من ادعاء وراثة الولايات المتحدة حضارياً وليس فقط اقتصادياً، وسيَقسم الغرب إلى غرب كاثوليكي ـ بروتستانتي وغرب يهودي».

□ □ □

في المساحة السوداء بين جنون العظمة والأفكار الشيطانية، يفكّر فضل الله في النموذج الاستعماري الأليق بإيران، ويرى أن عليها أن تحتذي حذو الامبريالية البريطانية، لا الألمانية، فتذهب إلى السيطرة على العالم، بدلاً من السيطرة على الإقليم؛ فالنفوذ الإيراني العالمي سوف يضمن لطهران النفوذ الإقليمي، وليس العكس. يقول الكاتب: «مارست الإمبراطورية البريطانية فنّ تقسيم الإثنيات وحكمها، والتحدّي أمام إيران اليوم هو تحويل هذه الممارسة إلى منهج علمي يَعتمد على أدوات ما بعد الحداثة لتفكيك الهويات وإعادة صياغتها». التطلع العالمي المقترَح من فضل الله على إيران، هو، إذاً، تطلّع استعماري صريح يقتضي أن تقوم إيران بمنح «الأولوية للاستثمار حول العالم، خارج الشرق الأوسط، وستَضع في أقصى تصوُّرها برامجَ الفضاء. هكذا يصبح الفضاءُ ناظمَ عملها السياسي، كما كانت القدس ناظمة مشاريع إيران الإقليمية خلال الثلاثين عاماً الماضية». الفضاء بدلاً من القدس، وضمان أمن إسرائيل بدلاً من إزالتها، واستخدام اللاجئين الفلسطينيين كبؤرة توتير في أميركا الجنوبية، بدلاً من النضال لإعادتهم إلى ديارهم... يسمح ذلك كله بتجاوز عقدة إسرائيل، والتفاوض مع اليهود على اقتسام العالم، اليهود من «الأشكيناز الروس». هؤلاء الأفيد لإيران، ذلك أنهم ليسوا غربيين ملحدين وعلمانيين كالأشكيناز الأوروبيين، ولا متدينين متشددين كاليهود السفارديم، بالإضافة إلى أنهم يشكلون قوة رئيسية وبازغة. التطلع الإيراني إلى العالمية يعني التطلع إلى اليهود، حكّام العالم!

وتبقى لدي ثلاث ملاحظات هي: أولاً، أنه من المعروف وجود تيارات تعاني من جنون العظمة والتطلع الاستعماري لدى كل القوميات. وهما نتاج تضافر الأزمات والتطرف السيكولوجي الناجم إما عن عقدة التفوّق (كما لدى الغرب) أو عقدة الدونية (كما لدى الشعوب المقهورة)، والبعد السيكولوجي، هنا، له علاقة جدلية بالانتماء والشعور بالذات القومية الخ. وعلى حد علمي، فإن محمد فضل الله هو عربي لبناني وليس إيرانياً، فمن أين واتته هذه السيكوبائية القومية الخادعة بحيث يكتب كقومي إيراني؟ أخشى أنه كشف عن عقدة الدونية المضاعفة لدى قسم من المثقفين الشيعة اللبنانيين، التي تنطوي على التخلي عن الذات (الخائبة) والتماهي مع القومية الإيرانية (الصاعدة). ثانياً، يظل مثقف الإسلام السياسي رجعياً، حتى حينما يخرج من إطار التراث الماضوي إلى فضاء الفكر الحديث، فهو، عندها، ينتقي من ذلك الفكر منتجاته الرجعية؛ فما بعد الحداثة يساوي، في العمق، ما قبلها. ثالثاً، كأن مثقف الإسلام السياسي لا يستطيع الفكاك من النظرة العدائية للعالم، فالإخوان المسلمون هدفهم النهائي «استاذية العالم»، وورثتهم من التكفيريين الإرهابيين، هدفهم تصفية العالم كله دونهم، ومحمد فضل الله يسعى إلى «تفكيك العالم وإعادة تركيبه». وهو يلاحظ، عن حق، أن الاتحاد السوفياتي لم يحز تلك الدينامية. بالطبع، فاتحاد الجمهوريات الاشتراكية، لم يكن، على عظمته وحجمه وقدراته النووية والفضائية والدفاعية، استعمارياً، ولم يرد الاستاذية على الشعوب ولا ذبحها، ولا تفكيكها وإعادة

تركيبها، بل كان تطلعه العالمي، ككل تطلّع اشتراكي، ذا طابع أممي يقوم على الاعتراف بالشعوب والمجتمعات وبثقافاتها، ودعوتها إلى السلام والتنمية والاتحاد في مواجهة الاستعمار والاستغلال وتجّار بؤر التوتر والحروب.

30 تموز 2015

فهرس

تصميم الغلاف: خلدون غرايبة

”

حين قرأت نصوص الرفيق ناهض حتّر، التي تتناول مسيرة "حزب الله" وفكر سيدالمقاومة، حسن نصر الله؛ فوجئت بمدى الجرأة الفكرية والسياسية في تناول ظاهرة تكاد تكون غير مسبوقة: فالدين، في منهج التحليل المادي الجدلي، ظاهرة في جوهرها غيبية، وفي سياقها السياسي رجعية بالضرورة، إلا استثناء، وهذا الاستثناء مربك. ولذلك، ظل التحليل العياني لظاهرة "لاهوت التحرير" في أميركا اللاتينية، مثار جدل في جذوره الطبقية والإيديولوجية، وكذلك في مآلاته، في سياق الثورة الوطنية والاجتماعية، سواء في مواجهة الهيمنة الإمبريالية الأميركية المستندة إلى تاريخ طويل من الإبادة الجماعية، أم في مواجهة الطبقات الاجتماعية-السياسية الكمبرادورية المهيمنة في معظم دول أميركا اللاتينية المرتبطة بها وقت انبثاق الظاهرة في أواسط القرن الفائت.

كيف يحلّل ناهض حتّر، من موقع ماركسي، الاستثناء الإسلامي الحاصل في بلادنا مع نصرالله وحزب الله؟ أدعوكم إلى قراءة جديدة ستفاجئكم أيضا.

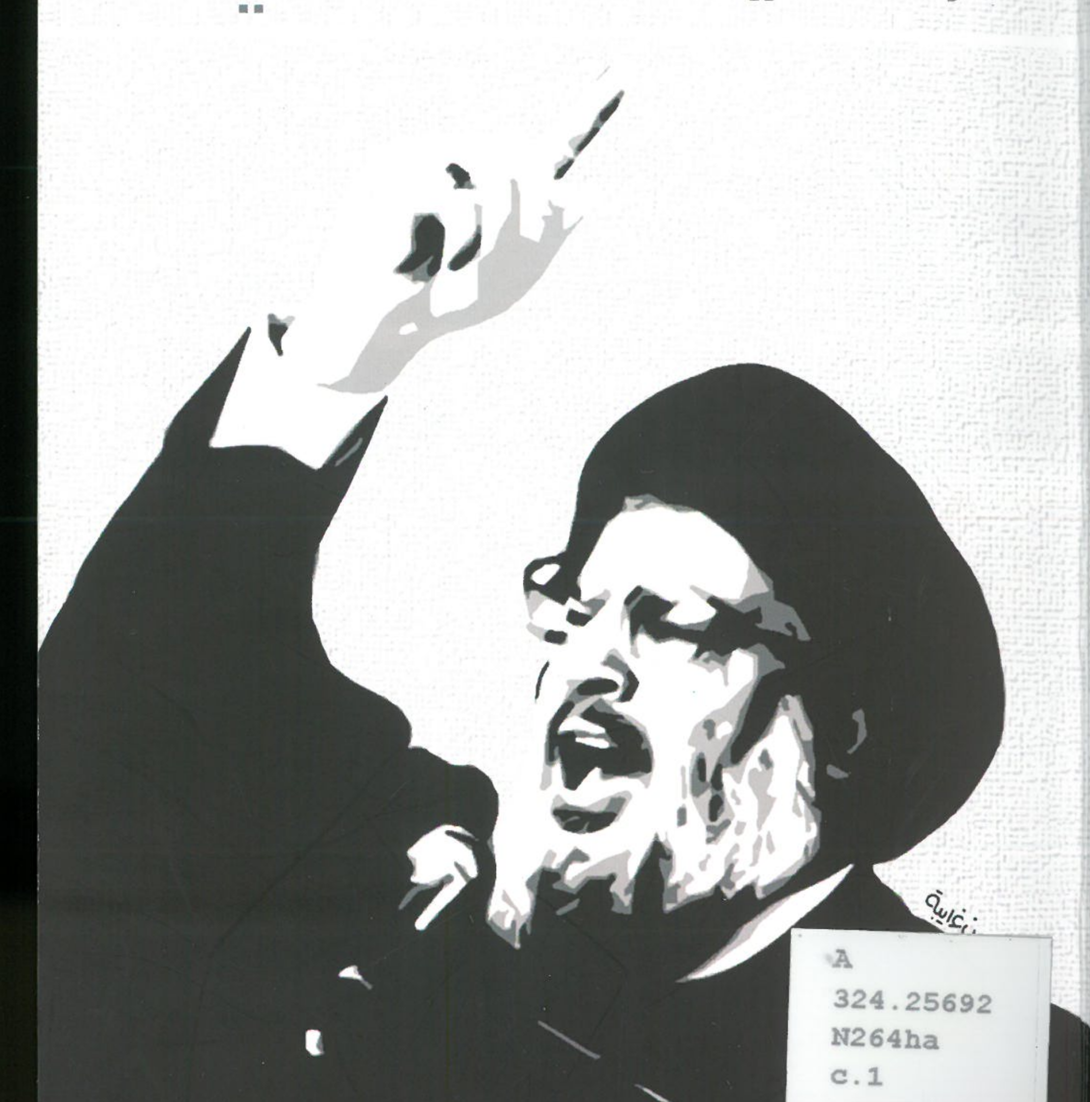
عصام التل

“



ناهض حتّر

حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني



ناهض حتّر

تصميم الغلاف: خلدون غرايبة

حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني

شبكة ميسلون للدراسات والإعلام

"

حين قرأت نصوص الرفيق ناهض حتّر، التي تتناول مسيرة "حزب الله" وفكر سيدالمقاومة، حسن نصر الله؛ فوجئت بمدى الجرأة الفكرية والسياسية في تناول ظاهرة تكاد تكون غير مسبوقة: فالدين، في منهج التحليل المادي الجدلي، ظاهرة في جوهرها غيبية، وفي سياقها السياسي رجعية بالضرورة، إلا استثناء، وهذا الاستثناء مربك. ولذلك، ظل التحليل العياني لظاهرة "لاهوت التحرير" في أميركا اللاتينية، مثار جدل في جذوره الطبقية والإيديولوجية، وكذلك في مآلاته، في سياق الثورة الوطنية والاجتماعية، سواء في مواجهة الهيمنة الإمبريالية الأميركية المستندة إلى تاريخ طويل من الإبادة الجماعية، أم في مواجهة الطبقات الاجتماعية-السياسية الكمبرادورية المهيمنة في معظم دول أميركا اللاتينية المرتبطة بها وقت انبثاق الظاهرة في أواسط القرن الفائت.

كيف يحلّل ناهض حتّر، من موقع ماركسي، الاستثناء الإسلامي الحاصل في بلادنا مع نصرالله وحزب الله؟ أدعوكم إلى قراءة جديدة ستفاجئكم أيضا.

عصام التل

"

ميسلون
شبكة ميسلون للدراسات والإعلام